سبكتروفوبيا

اسم الكتاب: سبكتروفوبيا
اسم الكاتب: د. چيلان عادل
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: مصطفى الدناصوري
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 22498
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 24 – 2

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

سبكتروفوبيا

مجموعة قصصية

د. چيلان عـادل

إهـــــــداء

إهداء إلى قلب وروح داعمة بالحب والقوة
إلى أمي.

إهداء إلى روح مساندة رحلت
ولم يرحل إيمانها بقلمي عن قلبي
إلى أبي

إلى الليالي القاسية، واللحظات الحالمة،
إلى مصادر الإلهام من ظلمات الواقع وإشراقاته.

د. چيلان عادل

سبكتروفوبيا

ننظر إلى المِرْآة.. نجد تأثير القدر في ملامحنا، أضواء مشاعرنا تنعكس فيها، فتارةً تُضِيء بنا المرآة وتارةً تبهت.

لا مجال للتأمل هناك، إنه فقط انعكاسٌ لمظهرنا وربما حالتنا المزاجية، لكن لا يوجد ضمانٌ هناك لمعرفة الذات ولا مستقرٌّ لأرواحنا؛ فهي ليست سجينة بالداخل.

لا مجال للثقة المفرطة في تلك الأسطح اللامعة. نحن كتلة من المشاعر والأفكار والتجارب والمواقف وأكثر. تستطيع المرايا الكذب والتضليل بإخفاء كثير من هذا وإظهار قليل غير كافٍ، كما تفعل الصور عندما تُظْهِرُ الابتسامات فقط بدون المشاعر العميقة، بدون حقيقة الروح، ترسم سكونًا على الرغم من فوضى الأفكار وتعقيد الشعور. وإن صرخت أمام المِرْآة، فسوف يبدو انعكاسك فيلمًا صامتًا لا مغزى له. إنها كالثلج الصلب لا تنصهر للمشاعر، لا تذوب لرقة القلب أو لإنهاك الروح.

لا مجال لطلب الحكم، فالمرايا تحمل أحيانًا القسوة وعدم الرضا عن الصورة وأصلها، وأحيانًا الزهو بكمال صورة تخفي روحًا مُشَوَّهَة، ليست قاضيًا عادلًا، فهي تنظر إليك منك.

علاقتنا بالمرآة تختلف، فهناك مَنْ تكون له محكمة للنقد أو حفلًا للتتويج أو موطنًا للذكريات وربما التساؤلات أو وكرًا للمخاوف، إنها تُشْبِعُ عديدًا من المشاعر المختلفة بداخلنا. فإما أن تغذي الهوس وإما أن تعزز الانتماء للذات وإما أن تخلق أي مستوى من مستويات ال(سبكتروفوبيا).

التلاشي

نبدأ الطريق في كل مرحلة من أعمارنا بمخاوف ما، وبمرور المسافات الزمنية، يتغير تفكيرنا وتسقط نظريات فيما يُقْلِقُنَا في الحياة، وتنشأ أخرى أكثر جدارة لتسقط هي الأُخرى، هكذا خُلِقَتْ المخاوف لتتلاشى، وهكذا خُلِقَ الخوف بداخلنا من الموت.. من التلاشي.

سَمِعْتُ صوت طرق شديد على باب شقتي بولاية (كاليفورنيا) منذ ساعتين، كانت العاشرة مساءً، وقد عدت من تدريبي اليومي في الفريق الوطني لكرة السلة للسيدات، هناك بركان ثائر في عقلي جراء ما حدث بيني وبين زوجي من شجار منذ يومين بعد عدة مشادات متكررة خلال هذا الشهر، فجمع أمتعته ورحل، لا أصدق أنه توقف عن دعمي بهذه السهولة، لا أصدق أنه رفع شعار "الاستقرار ببلدنا" وأسقط شعار "الطموح ومطاردة الأحلام"، أَعْلَمُ أن حُجَّتَه هي تَوَفُّرُ فرصة في(لبنان) للاستمرار في رياضتي، لكني لا أراها فرصة مناسبة لحجم إنجازي، يَصْعُبُ عليَّ استيعاب ما حدث، فلم نفترق منذ أن التقينا قبل عشرين عامًا، كنا أطفالًا وكَبُرْنَا معًا، كنا ضِعافًا وقَوَيْنا معًا، إنه أكثر من صديق وحبيب ورفيق وزوج.. إنه وطن. نعم، لقد كان وطني في الغربة ووطني في الوطن، ربما أكونُ قسوت عليه بعدم الرغبة في الإنجاب، لكنه رَدَّ لي برحيله الصاع صاعين.

كيف يمكن أن يكون هذا مصيري؟ مصير (نور) الفتاة اللبنانية الطموحة، تَرَكْتُ بلدي مع زوجي؛ سعيًا وراء أحلامنا بل أحلامي، ففي الواقع، إصراره على مرافقتي في هذه الرحلة كان من أجل حلمي في احتراف كرة السلة ومن أجلي أنا فقط.

مَرَّ عامان هُنا، وكل يوم بل كل دقيقة كانت خطوة نحو تحقيق ما جئت لأجله، وها أنا عضو مؤثر وفَعَّال في فريق الولاية، كل ما يسيطر على تفكيري هو هذا الطريق وذاك النجم الذي يرتفع مستواه كلما ظننت أنه في قبضة يدي، ذاك الحلم الذي كلما ظننت أنني حققته، يرتدي ثوبًا آخر أكثر إغراءً ورفاهيةً، فيجذبني تلقائيًّا نحو عمل شاق وجهد أكبر؛ ليُلائم التطور الطبيعي لطموحي.

لا أستطيع الكذب على نفسي، ففي وسط ضجيج الحياة والتزام تركيزي بالمستقبل الرياضي، يتحوّل تفكيري بشكل كُلِّي لوهلة من الزمن حين يقع نظري على صورة للعائلة أو يبعث لي أحد أقاربي رسالة على البريد الإلكتروني، فأبدأ التفكير في عدد الليالي والشهور والسنوات التي استقرت في قاع ساعة عمري الرملية وأنا بعيدة عن أسرتي، لا أسمع صوت أحد ولا أهتم بمعرفة أخبارهم بل أتكاسل عن الرد على كثير من رسائلهم، ثم أفيق من تلك الأفكار على صوت رسالة هاتفية من مدربي لتذكيري بميعاد تدريبي القادم وربما بعض النصائح المرفقة بالرسالة حول التمرين والنظام الغذائي، طالما آمنت أن معنى

الغفلة في حياتي يتمثل في كل ما يشغلني أو يبعد حواسي عن هدف النجاح والسعي نحو المجد.

وجود (أدهم) كان يضيف الطابع العائلي على غربتي هنا، فهو يُشْعِرُنِي بوجودي في لبنان بين أهلي وأصدقائي، وكَأَنِّي في أرضها وبين أشجار أرزها، لقد كان نموذجًا مُصَغَّرًا للوطن، والآن، قد رحل وأخذ معه شعوري بالأمان، تركني وحيدة أستسلم لمخالب الخوف وأُصاب بالفزع من مرور نسمات الهواء بستائر غرفتي وأيضًا من الأصوات برأسي، فكثيرًا ما يخدعني عقلي وتخونني أُذني وأتخيل صوت همهمات في الغرفة تسرق مني النوم بل وتأخذني رهينة للأرق حتى الصباح، وأحيانًا أخشى النظر إلى المرآة ليلًا، فتتسارع دقات قلبي وأنا أغسل وجهي قبل النوم لمجرد وجود المرآة بمواجهتي.

يومان قد مَرَّا على غيابِه، وقد فقدت تركيزي في كل شيء عدا كرة السلة، فما يوشك عقلي أن ينحرف نحو التفكير في الوحدة، حتى أُعيد توجيهه نحو الهدف الذي أتيت وبقيت وحاربت من أجله.

في الواقع، التحدي الأكبر يتجلّى عند عودتي إلى البيت بعد يوم شاق؛ حيث أجد أشباح الوحدة في انتظاري، آخر ما أنتظره من هذا الوضع البائس هو عجوز لا تكف عن الطرق على باب شقتي.

لقد أتقنت تجاهلها منذ أن تُوُفِّيَ زوجها الأسبوع الماضي، لكنها عقدت العزم على أن تضيف اهتمامًا جديدًا إلى حياتها البالية ألا وهو إزعاجي بالطرق المستمر على باب شقتي كل مساء، الطرق المصاحب بعبارات الإلحاح بعدم تركها بشقتها؛ حيث باتت تُفَضِّلُ النوم في الشارع على وجودها بالداخل وحدها.

قد كان من حسن حظها وجود (أدهم) الفترة الماضية -التي تعقب وفاة زوجها- فكان سرعان ما يستجيب لتلك الطرقات المُفْزِعَة، فيخرج من شقتنا ويصحبها نحو شقتها ثم لغرفتها ثم لسريرها، ويساعدها في الاسترخاء حتى تغفو ثم يعود ويَقُصّ عليّ كم هي مسكينة تعاني من الهلاوس، يُخيل إليها وجود ظل يركض في شقتها حين تكون بمفردها فتُصاب بالفزع، لابد أن صدمة فراق زوجها شديدة القوة، فقد عاشا وهَرِمَا معًا، كما أن ابنهما لم يأتِ لزيارتهما منذ فترة. إنها حزينة وتشعر بالوحدة، لدرجة أنها تكتب خِطابًا له كل يوم حتى تغفو، كل يوم يمر تعيشه على أنه اليوم الأخير في حياتها، ثم تستيقظ اليوم التالي لتُفاجِئُها أنفاسها وروحها بالبقاء وتُعيد الكَرَّة.

لم أواجه أية مشكلة مع مساعدة (أدهم) لها، فالأمر برمته لا يستغرق عشرين دقيقة، لكن الآن ما شأني بكل هذا الهراء؟!! فلست بِرِقَّةِ قلب (أدهم) كما أنني أشعر بالرهبة تجاهها وتجاه حديثها عن الظلال السوداء، إنها تجاوزت العقد السابع من عمرها، وشعرها الناصع البياض يصيب جسدي بالقشعريرة،

وعيناها الواسعتان المحملقتان ترعبانني، كما أن أمواج التجاعيد في بحر ملامحها تُثير اشمئزازي، وأشعر أنها على وشك إلقاء تعويذة أبدية لتلعن حياتي أو تمسّني بروح شريرة.

الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل وقد عادت مرة أخرى، وكأنها احتلت جسد شابة تستطيع أن تحتمل القيام بهذا العدد غير النهائي من الدقات المستفزة والمقلقة على باب شقتي في خضم حرب استنزاف لأعصابي.

الدقات مستمرة!! حسنًا، فاض بي الكيل، سأفتح لها وأتمنى ألا أتخلى عن إنسانيتي وأُسِيء التحدث معها.

ما الأمر يا سيدة؟! (بنبرة تكتم غيظي كبركان على وشك الانفجار)

العجوز: أَتَوَسَّلُ إليكِ أن تبقي معي الليلة، الليلة فقط.. لن أطلب منك شيئًا آخر ولن أُزعجك ثانية.

(العجوز تكمل كلامها بنبرات متقطعة وعيون تتغرغر بالدموع): لا أحد من الجيران سيفهمني ويأتي لنجدتي غيرك.

وجد التوتر والقلق طريقًا للسريان في عروقي، ولا بُدَّ أن ذلك بَدَا على ملامحي لكنها لم تلحظ؛ فقد كانت منشغلة بالتوسل الذي يتخلله نظرات سريعة مرتعبة للخلف وكأنَّ شيئًا ما يُطَارِدُها.

دقيقتان قد مَرَّتَا وخاضت مشاعري خلالهما عديدًا من الصراعات بين الخوف والشفقة والتوتر والحزن، أنهيت الصراع بنظرة سريعة اختطفْتُها نحو

شقتي الفارغة الكئيبة، ولسان حالي يقول إن هذة المسنة ليست الوحيدة التي تخشى قضاء الليلة وحدها، وخرجت من شقتي وتوجهت معها نحو شقتها وقد سبق أن تشبثَت بذراعي كطفلة صغيرة عثرت على والدتها بعد دهر من الضياع، فتنَفَّسَت الصعداء واطمأنت وبَدَا الارتياح على وجهها المُجعد، وعقلي يردد جملة واحدة ليُهَدِّئ بها من روعي: (ستمضي الليلة سريعًا)...

سكنْتُ لثوانٍ عند باب شقتها بعد قيامها بفتحه، ثم أدلفت للداخل متفحصة أرجاء المكان الذي لا يوجد به سوى بعض الأثاث والصور العائلية القليلة المستقرة في الأركان، يبدو من الصور أن لديها ابنًا كما أخبرني (أدهم) من قبل، أتساءل لِمَ لا يقوم بدور رعايتها والاهتمام بها في هذه السن؟! أيضًا المكان غير مرتب والنوافذ مفتوحة على مصارعها والأنوار مُضاءة جميعها، أعتقد أن لتلك الهلاوس دورًا في هذه الفوضى.

يسري داخلي شعور يصعب تفسيره، لكنني أحترم مشاعري وأتخذها بجدية، تلك المشاعر غير المبررة تكون صادقة معظم الأحيان، أشعر أن هذة الليلة ستكون بداية لشيءٍ ما مختلف، أتمنى ألا تكون بداية اللعنة!!

عندما دخلت وأغلقت الباب خلفي، أسرعت العجوز نحو المطبخ بخطوات لا تناسب عمرها متسائلة: أتريدين شيئًا لتأكليه أو تشربيه؟

-لا سيدتي، شكرًا.

العجوز: لن تقضي الليلة هكذا، إنه ليس تعذيبًا، عُدِّيه منزلك.

-لا يهم، كلها دقائق وسأخلد للنوم، لدي تدريب غدًا في الصباح الباكر.

بدا الإحباط على وجهها، وكأنها كانت تتوقع أنني لا أنام، أو أعيش خالية الوفاض من المشاغل والمسئوليات!

جلسَت على الأريكة وهي تشير إليَّ بيدها كي أستريح بعد أن وضعَت كوبين من القهوة على المنضدة قائلة: ألن تسألينى عن شيء؟!

لم أتعجب من سؤالها قدر تعجبي من نبرتها الواثقة التي لا تناسب ارتجافها منذ قليل وهي تُلِحُّ عليَّ بالقدوم، وسرحْت قليلًا في أنه كان من الأفضل ترك ورقة في شقتي مكتوب فيها: "ذهبت مع السيدة العجوز"، بدأت أتخيل سيناريوهات مؤسِفة مثل: إنها ربما قاتلة محترفة أو مستحضرة للأرواح أو من عبدة الشياطين أو ربما ستعطيني شيئًا ما آكله أو أشربه فأفقد شبابي وتسرقه مني بقوة سحرية ما، ثم نقلت نظري الهائم نحو كوب القهوة خاصتي ورمقت العجوز بنظرة حذر.

قاطعَت العجوز تلك الفوضى قائلة: اسمي (فيروز)، زوجك يعلم ذلك.

أجبت بتوتر: اسم لطيف.

سكتنا برهة ثم سألتها: نعم، أُريد أن أسألك عن تلك الظلال السوداء التي ترينها في شقتك.

بدا الحزن على وجهها وهي تقول: إنه ظلٌ آدميٌّ واحدٌ يسرق النوم والراحة من حياتي، يتجول في الشقة ويقترب مني شيئًا فشيئًا حتى يكاد يلمسني، قد

لمسني قبل وفاة زوجي بأسبوع وانتقلت إلى المشفى في غيبوبة مرض السكري، واقترب من زوجي بعدها فأُصيب بنوبة قلبية لم ينجُ منها.

(قالت ذلك والدموع في عينيها تأبى الخضوع للجاذبية أو حتى لمس وجنتيها)

– هل كان زوجك يرى ذاك الظل؟ (قُلْتُها وأنا أنظر حولي بتوتر)

العجوز: لا، لم يره، أنا فقط من أراه.

إذن، كان الظل يظهر لكِ قبل رحيل زوجك؟ (قلتها بطريقة المحققين)

العجوز: أول مرة كانت منذ خمسين عامًا عندما أتيت إلى الولايات المتحدة الأمريكية تاركةً أهلي وموطني وباحثةً عن فرصتي في الشهرة بمجال الفن، أتيت حاملة جيتاري على ظهري وحقيبة ملابس صغيرة بيدي، كان هذا الظل يصاحبني طوال الرحلة إلى هنا، أراه في المِرْآة تارة، وعلى الحائط تارة، وبين المارة تارة، لم أستطع أن أُحدد له هيئة، فهو كالطيف الذي يمر سريعًا مثيرًا للريبة في نفسي.

– كان يظهر بين المارة؟! إذن، يمكنه الظهور في الزحام دون أن يمنعه وجود أحد معك، فلِمَ استعنتِ بي كطوق نجاة؟!

قالت والحيرة تغزو قسماتها: بات الوضع مختلفًا في الآونة الأخيرة، وأصبح يختفي بوجود أي شخص حولي.

- لكنك أخبرتيني منذ قليل أنه لمس زوجك، إذن، فقد كان مصاحبًا لكِلَيْكما؟ (قلتها بحدة ممزوجة بالشك)

العجوز: لم يره زوجي ولم يعلم بوجوده كما سبق أن أخبرتك، أنا فقط رأيته بجوار زوجي في أثناء معاناته قبل الوفاة وظننت أن...

قاطعتها قائلة: لم تعرفي حقيقة ذاك الظل حتى الآن؟! (وقد بدا على وجهي القلق وعدم الاقتناع)

نظرَت إلى السقف وكأنها تعتصر ذاكرتها العتيقة ثم قالت: رأيته أيضًا عندما كنت أحمل (الوليد) بأحشائي.

- إنه ابنك.. ذاك الشاب في الصور، أليس كذلك؟

قالت بأسى: نعم، ابني الذي انشغل بحياته عني، وكأنني لا أُشَكِّل جزءًا منها.

أخذَت نفسًا عميقًا انتهى بسعال ثم قالت: مرت ثلاث سنوات دون أن أراه، فقد سافر مع زوجته وابنه إلى (دبي) ولم يعد لزيارتي منذ ذاك الوقت.

- انشغل بأعماله؟

العجوز: نعم.. من يستطيع أن يحلم دون أن يصبح أسيرًا لأحلامه؟!

- ماذا تقصدين؟

زاد سعالها، وبدأت تشير نحو دواء على الطاولة الجانبية للغرفة، فأحضرته لها مع بعض الماء ثم طلبت مني مرافقتها إلى غرفة نومها؛ لأنها تعبت من

الجلوس وتريد الاستلقاء على فراشها، أوصلتها للفراش ثم جلست على الأريكة المقابلة له، أشارت إلى شيءٍ على المنضدة أمامي وهي تقول: فلتتناولي بعض البيتزا.

ابتسمت لها مشيرة إلى عدم رغبتي، و كررت سؤالي: ماذا تقصدين بأن نصبح أسرى أحلامنا؟

العجوز: الإنسان يبدأ البحث عن الأعمال والأهداف التي تشغل فراغه وتضيف لوقته ولحياته قيمة وتساعده على مواصلة الحياة بشكل مُرْضٍ، ثم تتمكن تلك الأهداف من حياته، وتُغيّر شاكلتها، وتصبح هي الوسيلة والغاية، ومن أجلها سيتخلى عن شيءٍ أساسيٍّ في حياته كفدية من أجل استمرار الحياة في ثوبها الجديد، وقد كنت أنا ووالده تلك الفدية.

نظرَت إلى الطاولة المجاورة بأسى قائلة: أكتب له كل ليلة خطابًا.

– خطاب؟! أليس لديه بريد إلكتروني أو حساب على أحد مواقع التواصل الاجتماعي؟

تنهض قليلًا من استلقائها، وهي تمد يدها نحوي ببطاقة صغيرة مبللة من دموعها قائلة: هذا بريده الإلكتروني، أتمنى لو تستطيعين التواصل معه وإخباره أن والده قد رحل ووالدته مريضة بشدة.

– لماذا تُكَلِّفِين نفسك عناء الكتابة ثم لا تقومين بإرسال خطاباتك؟

العجوز: خوفًا من الخذلان.

– إذن، هربتِ من الخذلان بعدم محاولتك التواصل مع ابنك؟! لَمَ تحاولي إخباره كم هو مهم بالنسبة لكِ؟! "قلتها بحرارة"

–عزيزتي إياكِ والاستهانة بالخذلان، فهو شعور قاتل يتجنبه المرء فقط لتستمر حياته، إنه شعور قاسٍ كوقوف أقرب الناس إليكِ ساكنًا عند البر وأنتِ تغرقين أمامه.

– نعم، لقد شعرت بهذا مؤخرًا. (قلتها عقب تنهيدة عميقة).

العجوز: أي شعور تقصدين؟!

– الخذلان بالتأكيد.

ابتسمت لي بسخرية يتخللها الأسى قائلة: ظننتك تمثلين ذاك الساكن عند البر.

نظرت إليها بتعجب قائلة: هل حكى (أدهم) لكِ شيئًا عنّا قبل سفره؟

قطبت وجهها وبدا عليها التألم الشديد وقالت بحدة: اللعنة على التقدم بالعُمر.

ثم نظرَت نحو الباب قائلة في رعب: يا لطيف!

انتفضت من مكاني أسترق النظر نحو ما أرعبها فلم أجد شيئًا، أسرعت إلى جوارها على السرير، وأحكمت قبضتي على يدها كي تشعر بأمان لا أشعر به وأنا أقول: لن يؤذيكِ هذا الظل فأنا بجانبك.

لم يكن مستحيلًا ارتداء زي الشجاعة والبطولة، وذلك بسبب إقناعي لنفسي أن ما يخيفها هو جزء من خيالها، لم تنتبه لكلماتي فقد كانت تتبع بنظراتها

شيئًا ما يمر بالغرفة حتى استقرت عيناها على النافذة، وبدأتا تدمعان، ووجهها يتصبب عرقًا ودقات قلبها تعزف كفرقة لدق الطبول، ثم نظرَت إليَّ وقالت: قد أخطأت التفسير يا عزيزتي.

نظرْت إليها قائلة بحذر: ماذا تقصدين؟

أفلتَت يدها من قبضتي، وقالت لي بابتسامة حزينة: أريد ورقةً وقلمًا وأن تتركيني وحدي عدة دقائق، لا أعلم كم يتبقى لي من الوقت!

هتفت مستنكرة: أأتركك وحدك الآن؟!

قالت لي باستسلام: لا بأس بذلك، فقط اتركي باب غرفتي مفتوحًا، وألقِي نظرةً عليَّ بين الحين والآخر.

احتلني التوتر، ثم أخرجت الهاتف من جيبي في حركة تلقائية سريعة وطلبت الطوارئ، وأخبرتهم أن هناك مسنة تعاني من أعراض أزمة قلبية، وهنا نتطرق لحقيقتين: الأولى هي أني لا أعرف ماهية أعراض الأزمة القلبية، لكنها الكلمة التي قفزت من عقلي للساني دون تفكير، أما الثانية فهي أن خوفي على نفسي كان أكثر من خوفي عليها، وفي الواقع، كنت أشعر أنني مَن سأُصاب بالأزمة القلبية من هوْل الاضطراب.

ودارت حلقة من التساؤلات في رأسي: هل أهرب؟ أأدخل غرفتها وأرفض تركها وحيدة؟ أم فقط ألتزم بما طلبته مني وأنتظر؟

كنت أُفضِّلُ أن أطمئن عليها، لكن السيناريوهات المرعبة في عقلي لما سأجده بالداخل منعتني.

بعد دقائق مرت كالساعات، نظرْت من الشرفة وعَلِمْت وصول سيارة الإسعاف، دخل فريق الإسعاف الشقة ثم الغرفة، وقتها فقط استرقت النظر إلى العجوز المُستلقِي على بطنها ورق ويدها ملقاة خارج أطراف السرير والقلم مُلقَى على الأرض.

وقتها فكرت في شيءٍ واحد فقط ألا وهو أنني موضع اشتباه في وفاتها بالتأكيد، اللعنة على الوحدة التي اضطرتني إلى التورط في حادث وفاة عجوز. لكنهم خرجوا سريعًا وأحدهم يقول "هناك صعوبة في التنفس، لكن النبض مازال مستمرًا" وهم ينطلقون لإنقاذها.

فكرت في الحصول على ما كتبته منذ قليل، لكن لم أستطع، ثم توجهنا جميعًا إلي سيارة الإسعاف.

وبعد دقائق، أعلن فريق الطوارئ توقف قلبها وعدم استجابتها للإنعاش القلبي، وتوجه أحد المسعفين نحوي حاملًا الأوراق قائلًا: إنها لكِ، هل هي والدتك؟

- لا، إنها جارتي.

المسعف: سننقلها للمشفى وسنحاول التواصل مع أحد أقاربها.

صعدت مُسرعة نحو شقتي أكتم البكاء، وبينما أنا في المصعد، لمحت بطرف عيني خيال شخص بالمرآة المجاورة على الرغم من أني كنت وحدي بالمصعد. حبست أنفاسي وأغمضت عيني والدموع تنساب منها حزنًا وخوفًا، إنه ذاك الشعور يتحقق الآن، فقد شعرت من قبل أن الليلة ستكون بداية لشيءٍ ما وكنت أتمنى ألا تكون بداية الهلاوس أو الجنون. توقف المصعد حيث توجد شقتي، فتحت عيني ثم ركضت نحو الشقة متجنبة النظر خلفي، أغلقت الباب ورائي لكنه لم يكن بر الأمان؛ فقد أحسست بحركة في الستائر، وظلال غير مفهومة بالمرآة، وأصوات أنفاس، هل هو صوت أنفاسي؟ أَتُنَفِّذُ حواسي مؤمراة ضدي؟ أم أن ذاك الظل بات يلاحقني؟

انتفضت من مكاني عندما سقطت صورتي مع (أدهم) من فوق الطاولة، لم أشعر بنفسي وأنا أركض نحو خزانة الملابس وأضع ملابسي وأغراضي في حقيبة السفر وأغادر مسرعة.

بعد ساعة، كنت في مطار (سان دييجو) الدولي، بعد أن حجزت تذكرة لـ(بيروت) عبر الموقع الإلكتروني، وأرسلت رسالة إلكترونية إلى ابن العجوز بوفاة والديه، ولم يصحبني في الطريق إلى المطار سوى الخوف والحزن والتشتت، وها أنا جالسة في انتظار موعد الطائرة. كنت مضطربة وأنظر حولي بين الحين والآخر. كان من الضروري البحث عن أي مصدر للإلهاء، فأخرجت خطابات السيدة من حقيبتي، لم تكن إلا خطابين وبدأت قراءة كلمات مكتوبة ببقايا روح:

(عزيزي وابني الوحيد وكل ما أملكه في هذا العالم، لقد رحل والدك إلى الأبد منذ أسبوع وأنا التالية، وإنها وصيتي لك، اعتنِ بأبنائك جَيِّدًا، وأحِطهم بحنانك، واغرس بداخلهم حب الانتماء إليك، ولا تجعل العمل قبل العائلة حتى لا تموت وحيدًا.

لا تخف من أي شيءٍ في حياتك، فكل المخاوف ستزول ما عدا شيءٍ واحدٍ ستعلمه مع الوقت.

عزيزي (الوليد) لقد كتبت إليك عديدًا وعديدًا من الخطابات، فكنت لا أغفو ليلًا حتى أكتب إليك رسالة غير مُرسلة مليئة بالحب والعتاب والشوق، ثم أضعها على الطاولة بجوار سريري. أندم الآن لعدم إرسالهم، فربما جعلتك معي في آخر لحظات حياتي ومن هنا، وصيتي الأخيرة لك: إياك والخطط المؤجلة فربما خطوة مؤجلة اليوم تصبح مُلغاة للأبد.

أتمنى أن تعيش حياة خالية من الندم، مليئة بالحب والرضا ولا عزاء لشوقي إليك).

مسحْتُ الدموع المنسابة على وجنتيّ، وسكنت قليلًا ثم أخرجت صور عائلتي من الحقيبة وتفحصت تفاصيلها بإمعان صامدة في مواجهة فيض من الذكريات، ثم أدركت أن الخطاب الآخر ربما يكون ملاذًا مما يشعر به قلبي من شدة الإخفاق، فبدأت قراءته وقد كان مُوَجَّهًا إليَّ مِن العجوز الراحلة:

(عزيزتي رفيقة اللحظات والأنفاس الأخيرة، ربما لا أتذكر اسمك، لكنك اليوم شاركتيني أصدق لحظة في حياتي وحتمًا ما قبل الأخيرة، إنها لحظة وصولي إلى حقيقة هذا الظل، ربما أخبرتك منذ قليل أنه كان مرافقًا لي عندما رحلت عن موطني، لكنني تذكرت اختفاءه عند مقابلتي زوجي أول مرة، ربما زال بزوال خوفي من الشعور بالغربة، وأيضًا عندما كنت حُبلى في ابني الوحيد عاد الظل، ثم اختفى مع أول لمسة وحضن لابني عقب الولادة، ربما زال بزوال خوفي من الأمومة، سمعت بقصف بيوت الجيرة بموطني (فلسطين) استمر الظل في ملاحقتي حتى اتصلت أُختي وأخبرتني أن العائلة بخير، فزال الظل بزوال خوفي من فقدانهم، ثم عاد عند مرض زوجي واستمر فترة، فقد كنت أخشى رحيل زوجي وأيضًا أخشى الوحدة لذا كنت أقضي النهار متجولة في الشوارع والمطاعم بما لا يناسب قدراتي الجسدية، وعندما يأتي الليل أسألكم النجدة من الظلال، وذلك بمرافقتكم لي حتى النوم.

عزيزتي.. ستبدئين الطريق في كل مرحلة من عمرك بمخاوف ما وبمرور المسافات الزمنية، سيتغير تفكيرك وتسقط نظريات عما يقلقك في الحياة وتنشأ أخرى أكثر جدارة لتسقط هي الأُخرى. هكذا خُلِقَتْ المخاوف لتتلاشى، وهكذا خُلِقَ الخوف داخلنا من الموت.. من التلاشي).

ثقة عمياء

ليت العالم يدرك أن هناك عديدًا من التفصيلات التي لا تُرَى، ولكنها تملأ الروح وتُشعِر بالأمان والحب، وأن البصر لديه خُدَعُه وإلهاءاته، وكما تستطيع أن تهتدي به، فمن الممكن أن تضل سوء الضلال ولا تعلم حتى إنك ضللت. ليت العالم يُسقِط رايات الانتماء الزائفة، حيث أصبحت الوجوه مؤنسة والأرواح وحيدة، ليتهم يدركون أن المشاعر لا المظاهر هي مرآة القلوب.

-الصمت سائد. صوت أنفاسي يتسلل خائفًا مرتعبًا من الوشاية بمكان اختبائي، أحاول إلهاء نفسي عن صعوبة ما أخوضه، أيمكنكم تخيل موقفي كرجل كفيف يختبئ فوق خزانة ملابس في غرفة ما وحيدًا لا يد تسنده ولا عصا ترشده، وخارج هذه الغرفة يتجول لِصَّان أحدهما يلهث لرائحة الموت والآخر غارقٌ في نشوة السرقة، يبحثان عني وعن زوجتي وأصدقائي؟ هكذا يغتالني الخوف وتلتهمني اللحظات حتى تصل سيارات الشرطة والإسعاف، كما أخبرتني زوجتي منذ قليل.

صوتها الدافئ الذي يصل إليّ عبر سماعة الهاتف المعلقة بأذني دائمًا هو ما يُطمئنني طوال هذه اللحظات العسيرة، كأنها تبعث الدفء في قلبي بعد أن تجمدت أطرافي وجَفَّ حلقي. أعترف أننا لا نكون دائمًا محظوظين كفايةً لنمتلك أشخاصًا نثق بهم في حياتنا، نعتمد عليهم، نضع كل تفاصيل حياتنا على

كاهلهم، يجيدون الشعور بنا وبتقلبات مشاعرنا، يتداخلون في حواسنا فندرك معاني الحياة معهم وبهم.

قد وقعت في شِرك ظنوني طوال فترة حياتي السابقة بأنني اعتقدت أن الحظ والسعادة والرفاهية هم حلفائي الأزليون، لكن في الفترة التي أيقنت فيها زوال حظي في الدنيا، كانت هي حظي الأجمل والأسعد والأثمن، إنها (فيرونكا)...

الويل لتنشئة الظالمين! فقد ترعرعت بين أفراد عائلة بيضاء عنصرية، تنظر إلى ذوات البشرة السمراء خاصة، وذوات الأصول غير الأوروبية عامة نظرة احتقار.

المنطق لفظ أنفاسه الأخيرة في عقولنا وأصبح الضلال شر خليفة. فنحن الملوك وهم العبيد. نحن القادة وهم خادمو الرعية. نحن الأحياء وهم الأموات. نؤمن بعدم أحقيتهم في العيش معنا والتجول في شوارعنا والأكل من طعامنا، ونرى أنه لَظُلْمٌ كبير حصولهم على حقوق مساوية لحقوقنا، يا له من شرفٍ زائف حين نجتمع على السخرية منهم! ويَا له من نُبْلٍ أحمق حين نطالب باضطهادهم وطردهم من البلاد! لم نَعُدّها عنصرية، بل عَدَدْنَاها حقًّا ومطلبًا شرعيًّا في غاية البساطة وخاصةً أننا لسنا بحِدة أقارب والدي الذين يؤمنون بعدم أحقية أولئك القوم في الحياة على أية أرض. وظَل تفكيري هكذا ونشأت على هذا المبدأ وكوّنت صداقاتي السطحية والعميقة المعتمدة معظمها على تلك الثقافة العنصرية المشتركة حتى وصلت إلى الجامعة.

اضطررت إلى الانتقال لولاية أخرى من أجل الالتحاق بالجامعة، وكان التحدي الأكبر يكمن في وجودهم حولي بأعدادٍ كبيرة. ظننتهم البلاء الأكبر وعَدَدْتُهم ظلامًا دامسًا ومَوتًا أسود أولئك السُمر من أصول إفريقية وآسيوية هندية، وليسوا طلبة فقط بل أساتذة. كان كثيرًا ما يتورط صديقي (جيف) في شجارات معهم، لكنني كنت أُفضِّل التجنب، التجنب كان سيد الموقف، فإذا حُكِمَ عليّ بالعيش في أرض الوباء، فلِمَ أقترب من مصدر العدوى؟! وظل هذا منطقِي حتى أصبحت (فيرونكا) ذات الأصول الإفريقية شريكتي الإجبارية في مشروع التخرج. لم نتوافق قط، فقد كانت حادة الطباع وعنيدة، أو فقط أصبحت هكذا عندما لاحظت تجاهلي لها ومحاولاتي المستميتة لاستبدالها بزميلة أخرى، لكن كل محاولاتي آنذاك باءت بالفشل، وعلقت معها بالمشروع، ولم أكن أعلم وقتها أن تلك التي ظننتها بلاءً هي في الواقع أكبر وأثمن هِبة. فقد عُرّضْتُ في العام الأخير من الجامعة لحادث سيارة، كنت عائدًا من حفل ما مع (جيف) وقد غلبني النعاس في أثناء القيادة، وربما كان تأثير الكحول، رأيت نورًا ساطعًا صادرًا من شاحنة، لم أكن أعلم أنه آخر شيءٍ سأراه قبل أن أفقد بصري للأبد. فتحت عيني بعد الاصطدام بالشاحنة، لم أر شيئًا، ولكني شعرت بقطع الزجاج العالق بوجهي وجسدي، حاولت الالتفات يمينًا ويسارًا؛ لأتفقد (جيف) لكن كان الظلام البغيض ثم فقدت وعيي. من رحمة القدر بي عدم رؤيتي جسد (جيف) الهالك في لحظاته الأخيرة؛ حيث يكفيني جَلد الضمير لي وتأنيب نفسي

كل يوم لما تسببت فيه وما أجرمته، وعندما أفقت في المشفى كان الظلام حاكمًا وسيداً للموقف.

كانت هناك (فيرونكا الملاك الحارس)، لم أتقبل الوضع في بادئ الأمر، لكنها لم تتركني وتولت مسئولية مشروع التخرج، بل ومسئولية رعايتي شخصيًّا. كان لطفها يشعرني بالضعف طالما اعتدت على عنادها وحِدَّتِها، ولكنها كانت تحاول أن تزرع يقينًا بداخلي أن لطفها لا علاقة له بأي إحساس بالشفقة وأن هذه طبيعتها. هي فقط اضطرت أن تتحدى طباعها الرقيقة سابقًا بسبب فظاظتي وغلظتي معها، لم يكن بصري هو الشيء الوحيد الذي فقدته تلك الليلة، (جيف) أيضًا -أعز أصدقائي- رحل للأبد تاركًا أطلال ذكراه تعيث في روحي جُحْمًا، كان حادثًا أليمًا تغير بعده كل شيء، حتى أنا لم أعد كما كنت، وقد كان من الممكن أن يستعبدني الظلام لأغدو شخصًا قاسيًا وكارهًا نفسي والناس، ولكن (فيرونكا) كانت تمنع السواد من التسرب داخلي والتغلب عليّ، لا أنكر أني على الجانب غير المشرق أصبحت أخاف كل الأشياء، لا أثق في شيءٍ أو في شخص، لكني كنت أثق فيها ثقة عمياء. فهي مرآة تصورني وتصوّر العالم لي. جعلني الظلام أفقد ثقتي في الصور والملامح والمظاهر ونظرتي السطحية للأمور. كرهت ملمس المرايا وألبومات الصور وكل شيءٍ ساهم في خداعي وضلال حكمي على الواقع. أدركت أن عيني كانت تهبني البصر لا البصيرة، كانت تهديني إلى رؤية الوجوه وكانت تضلني في الحكم على النفوس. فمنذ

الحادث، غابت عني أصوات كثيرة من أصدقائي، لكن صوتها كان هناك يطمئنني كل لحظة وكل يوم. أما بالنسبة للجموع الحاشدة من الأصدقاء، فلم يتبق منهم سوى صديقين فقط.

مكث الزوجان (باميلا) و(روبرت) في حياتي يشيعون جنائز الماضي، لقد كافحت كثيرًا لجعلهم يتقبلون (فيرونكا)، ثم عانيت لجعل أهلي يتقبلونها، ثم قررت المحاربة من أجلها، لم أتخيل أيّة فتاة لتكون زوجتي سواها، وتزوجنا منذ عام.

في البداية، كانت الأمور شديدة التعقيد والصعوبة من جهة عائلتي، وبالنسبة لي، كان من الممكن المُضِيّ في الطريق الأسهل بالتخلي عن (فيرونكا)، لكنني فضلت الصعوبات واحتضنت العقبات مقابل وجودها بجانبي، قد أوجدَت داخلي ثقةً وحكمةً وإيمانًا وحبًّا لم أكن أتوقع أن يحدث في هذه المرحلة من حياتي وخاصة بعد ذاك الحادث. فأصبحت روحي أفضل من أي وقت مضى، أصبح داخلي العديد من المعاني الرائعة التي غُرِست في قلبي للأبد، لكن في نهاية النفق، يقف ذاك الشبح المرعب داخلي. هناك ذلك الخوف الذي يهددني عندما تبتعد عني لفترة طويلة، حين أستيقظ ولا أجدها بجواري لثوانٍ، حين أنادي اسمها وتغفل أذناها دون الاستجابة أو يثقل لسانها دون الرد السريع. قد تكون ثوانِيَ لكنها تمر عليّ دهورًا.

عزف البيانو هو عالمي الخاص الفريد، ربما تكون مفاتيح البيانو سوداء وبيضاء فقط، لكنها تجعلني أصنع عديدًا من الألوان، لقد قالت لي فتاة صغيرة منذ عدة أيام في أثناء عزفي في الكنيسة إنني لا أصنع فقط مقطوعات بل لوحات تصل ألوانها للقلب مباشرةً، وقد راقتني كلماتها لدرجة شدة التأثر. أنا الآن أقوم بتأليف مقطوعات موسيقية تساعدني فيها (فيرونكا)، فهي ملهمتي ومعجبتي الأولى وجمهوري الرقيق وجيشي العظيم.

دعاني (روبرت) وزوجته (باميلا) لحفل عيد زواجهما بمنزلهما، وجدت أنها فرصة جيدة ليعرفا زوجتي عن قرب، لقد اعتدت زيارة منزلهما قبل الحادث، فهو بيت جميل من طابقين علويين والعليّة التي يمكن الصعود إليها عبر سلم متحرك يتدلى من سقف الطابق الثاني، يمتلكان كثيرًا من الأغراض الثمينة. لذا تسكن عديد من الكاميرات بأركان المنزل المختلفة ويتم مراقبة الكاميرات عبر شاشات موجودة في العليّة.

كان كل شيءٍ يسير على نحو جيد حتى استأذنت (فيرونكا) للذهاب إلى المرحاض عدة دقائق وقررت انتظارها في الطابق الأول حيث يوجد معظم الحضور، ثم سمعنا صوت طلق ناري.

في قصص حياتنا ليس هناك ما هو أكثر رهبة من تلك اللحظات التي يتغير كل شيءٍ بعدها للأسوء، وتتمنى لو كان بيدك أن تتخلى عن كافة أحلامك وأمانيك فقط لتعود الأمور كما كانت، لا خسائر تطيح باستقرارك، لا نيازك

تسقط بكوكبك، لا صخور تُقذَف نحو قلبك. إنها لحظة السكون الأخيرة قبل لحظات من الفوضى حتى إشعار آخر.

صوت الطلق الناري أعاد أصوات تصادم أجزاء السيارة بعقلي. توقعت حدوث مأساة أخرى بحياتي. بعدها بثوان سمعت صوت أقدام تركض على السلم ثم صوت امرأة تصرخ بفزع قائلة: (اثنان يحملان سلاحًا أصاب أحدهما (بيتر) في قدمه و(دانيال) في كتفه، وسيصعدان هنا)

بعد هذه الكلمات، حدث هرج ومرج في المكان وعجزت عن ترجمة تفاصيل ما يدور حولي، فغالبًا كان جميعهم يصطدمون بي يحاولون الهروب. سقطْتُ على الأرض حتى التقطني أحدهم قائلًا: "هذا أنا.. لا تقلق يا (ماثيو)" لقد كان صوت (روبرت) الذي أكمل قائلًا: سنختبئ في العليّة جميعًا حتى تأتي الشرطة.

ثم جاء صوت مذعور: (أسرعا، إنهما قادمان). صاحب تلك العبارة اخترق الخط الذي يصلني ب(روبرت) واصطدم بي بقوة، فسقطت على درجات السلم، وبعد النهوض، لم أجد أحدًا بجانبي. لم أجد داعمًا أو مرشدًا حاولت تجميع شتات أمري والاعتماد على بقايا ذاكرتي في تحديد وجهة للاختباء في المنزل، وعندما تحسست بعض اللوحات في الممر أدركت أنه الطابق الثاني. استغرق الأمر عدة دقائق، ولولا انشغال المقتحمين بسرقة الطابق الأرضي، لكنت مَيْتًا لا محالة. شعرت بذبذبات في أذني. إنها إشارة باستقبال اتصال.

ضغطت على الزر، فأتى صوتها متلهفًا: "(ماثيو)، أنا أراك عبر الشاشات" خذ نفسًا عميقًا وتقدم ثلاث خطوات للأمام، ستصادف حجرة نوم الأطفال على يمينك، اختبئ داخلها.

نفذت ما قالته فيرونكا، وعندما وصلت إلى الغرفة تنفسنا الصعداء سويًّا ثم قالت لي بِأَسَى: "عندما خرجت، سمعت صرخاتهم جميعًا واندفاعهم نحو العليّة. سألتهم عنك وأخبرني أحدهم أنك بالأعلى مع (روبرت). ذلك ما جعلني أصعد إلى هنا. لم أكن أعلم أنك مازلت بالأسفل. وعندما هممت بالمجيء إليك، رفضوا إنزال سلم العليّة حتى لا ينكشف مخبأنا للمقتحمين. أنا آسفة بشدة. ما كنت لأتركك وحدك عزيزي".

قلت لها: لا عليكِ يا ملاكي الحارس، لن أشعر بالخوف طالما صوتك يرافقني.

ضغطت على زر إضاءة الغرفة حتى تتمكن فيرونكا من رؤيتي بوضوح عبر الكاميرات ومتابعة تحركاتي، ثم جلست على الأرض ساندًا ظهري ورأسي بالباب، وكان شعوري بالعجز قد أثقلني. كنت أُجاهد لعدم الاستسلام لهذا الشعور المخزي بمحاولة تجميع أركان المكان وتفاصيله من ذاكرتي، فقد تجولت به عدة مرات منذ بضعة أعوام. نسيت كثيرًا من التفاصيل لكن فيرونكا كانت تراقبني وتساعدني على تكوين صور تقريبية لما حولي، فيمكنني الآن إدراك أن

الشرفة أمامي مباشرةً على بُعد عدة خطوات والسرير أقصى يميني وإلى جانبه خزانة الملابس، أما على اليسار فهناك مرآة وبعض الأدوات المبعثرة.

لاحظت بعضًا من الارتجاف يتسرب من صوتها –على الرغم من محاولتها التماسك– وهي تقول: "(ماثيو)، عزيزي.. انهض واستعد للاختباء. إنهما قادمان نحو ممر هذا الطابق الذي تستقر به"

وقتها سمعت أصواتًا متوترة لأصدقائي وترشيحات مختلفة بأماكن للاختباء. سمعت عديدًا من العبارات المقترحة تسربت لأذني تتخللها نبرة التوتر مثل: (ليختبئ تحت الفراش) (أخبريه أن يسرع نحو الشرفة) (عليه بخزانة الملابس ليتوارى بداخلها). كانت ثوان معدودة، لكن الخوف فيها كاد أن يحكم على حواسي بالاستسلام؛ ليس لهول موقف اقتراب المقتحمين فقط، ولكن أيضًا لهول الاختفاء المفاجئ لصوت (فيرونكا). أعلم طريقة تفكيرها. لابد وأنها كانت تبحث عن الحل الأنسب للمكان والوقت ولقدراتي المحدودة. فثقتي بعقلها الراجح لا تقل شيئًا عن ثقتي بقلبها الملائكي. وبعد وقت بدا طويلًا، طلبت مني أخذَ نفسٍ عميق والتقدم خطوتين إلى اليمين؛ لالتقاط عصا البيسبول الخشبية الملقاة جانبًا ثم العودة لنقطة البداية –ألا وهي باب الغرفة– ثم أتقدم أربع خطوات للوصول لمركز الغرفة ثم توجيه عدة ضربات بالعصا نحو السقف لكسر المصباح. وكان لها ما طلبته. وحاولت التنفيذ على الرغم من عدم معرفتي بالغرض من هذا. وعلى الرغم من أن كل الاقتراحات الأخرى

الصادرة من أصدقائي بدت أكثر سهولة ومنطقية، فإن هذا لم يزعزع ثقتي وإيماني بها.

واحد.. اثنان.. ثلاثة .. أصبت الهدف عند (اثنان) وقامت فيرونكا بكسر شيء ما في العليّة عند(ثلاثة). مما شَتَّتَ المقتحِمَين قليلًا في تحديد مصدر الصوت وأبطأ حركتهما لوقت كافٍ كي أتمكن من الصعود فوق السرير ثم أتسلق خزانة الملابس لأختبئ فوقها بخطوات درسَتها (فير) جيدًا. قبل أن أقوم بكسر المصباح وقطع سبل متابعتها لي خلال الكاميرات، فقد أخبرتني بعد التحطيم بالسير خطوتين يمينًا حتى الوصول للسرير والوقوف عليه ثم خطوة حتى الخزانة، وكنت أستعين بعصا البيسبول من أجل تسهيل الطريق وتقليل العرقلة كما أخبرتني حبيبتي. طوال تلك الفترة كنت أسمع أصواتًا ممن يلقون اللوم عليها بحجة تصعيب الأمر عليّ وتعريضي للخطر بإحداث صوت واضح بكسر المصباح. لم تدافع عن نفسها ولم تضيّع وقتًا بمناقشة أحدهم ولم تنشغل بغيري. ثم جاء صوتها قائلة: " عزيزي.. أنا آسفة حقًّا لتعرضك لهذا الموقف. ليتني كنت بدلًا منك. أريدك أن تسترخي. لقد كانا يبحثان عن سلم للوصول إلينا لكنهما لم يجدا. لذا، فَهُمَا يبحثان في الغرفات. حافظ على هدوئك. إنهما مازالا قريبين".

بعدها بثوان، سمعت صوت فتح باب الغرفة والضغط على زر الإضاءة وحديث الرجلين. حيث يخبر أحدهما الآخر بعدم وجود إضاءة فيطلب الآخر منه أن يبحث سريعًا تحت السرير وفي الشرفة عن أي شخص مختبئ. سمعت صوت وقع أقدامهما في الغرفة، وقد كان من حسن حظي عدم وجود الإضاءة؛ حيث إنني كنت أختبئ في مكان واضح للعيان، لكن صعب التفكير فيه أو رؤيته في الظلام. صمت عقلي لحظة ثم بدأت الاستنتاج. نعم، هذا ما أرادته (فيرونكا) من أجل إبقائي آمنًا، ثم ابتعدَت خطوات أقدام الرجلين حتى غادرا الغرفة.

والآن، أنا سعيد بسماعي صوت سيارة الشرطة يقترب وزوجتي تطمئنني وتؤكد لي وصولهم أخيرًا. لقد كنت خائفًا من أن يطول الأمر عن ذلك وخاصةً أن قواي قد خارت تمامًا. ولم يسلم وجهي من بعض الخدوش إثر تنفيذ خطة تحطيم المصباح.

دقائق من الصمت بعد أن أخبرتني بالقبض على المقتحمين ونزولهم جميعًا من العليّة، ثم صوت متلهف على بُعد عدة خطوات يقول: "(ماثيو) زوجي هنا، فليُحضر أحدكم الكشاف. ماثيو، لا تقلق أنا هنا الآن".

ملمس يدها وهي تساعدني في النزول، وشاحُها الذي تغطي به جروح وجهي، عطرها الذي يملأ كياني، دموعها التي تسيل على وجنتيها حيث تمر أناملي. ليت العالم يدرك أن هناك عديدًا من التفصيلات التي لا تُرى ولكنها تملأ

الروح وتُشعِر بالأمان والحب، وأن البصر لديه خُدَعه وإلهاءاته وكما تستطيع الهداية به، يمكنك أن تضل سوء الضلال ولا تعلم حتى إنك ضللت. ليت العالم يُسقط رايات الانتماء الزائفة حيث أصبحت الوجوه مؤنَسة والأرواح وحيدة. ليتهم يدركون أن المشاعر لا المظاهر هي مرآة القلوب.

سأحبها دائمًا، وأحافظ على رباطنا المقدس، وسأخبر جميع الناس أنني أُحبها حبًّا مُبصرًا وأثق فيها ثقة عمياء.

الزيارة

نحن المتغيرون بين عدد لا نهائي من المتغيرات، فالشيء الثابت الوحيد هو فناؤنا. أعمارنا لن تشبهنا دائمًا، قد نصغرها وقد تصغرنا وقد تناسبنا، والأكثر شيوعًا هو حدوث كل ما سبق في مراحل مختلفة من حيواتنا، حتى مشاعرنا تبدو دائمة بشكل مؤقت ومؤقتة بشكل دائم، ما يُسهِّل الأمر أننا ننسى.. ننسى أو نتناسى، فهي عملية إنقاذ حياتية، لكن مع تقدم العمر وعندما يعجز العقل عن المضي قُدُمًا، يأخذنا لأماكن هجرناها منذ أعوام. إنها كهوف الماضي، وقد يُهَيَّأ لنا أننا نعيش هناك للأبد، لا نعلم طريقًا للنجاة من ذلك، ولكن نأمل إذا اصطحبتنا عقولنا لتلك الأماكن أن يكون ضوءُها ساطعًا خاليًا من ظلام الندم ونسائمها خفيفة بدون ثِقل الاستنكار...

لحظة واحدة تليها ملايين اللحظات، حبات الوقت انفرطت وتبعثرت من عقد عمري، بقى بعض الوقت وهرب كثير منه، تتسرب ساعات يومي هذا وأنا محملق صوب باب منزلي، أتخيل رنين جرس الباب مشيرًا إلى قدوم أحدهم للسؤال عن حالي بعد نوبتي القلبية الأخيرة، فتسرع روحي بالوثب نحوه، لكن جسدي المتهالك يعرقلها ويُزيد ثقلها فيُبطئ من حركتها، وعند نهاية رحلة الخمس خطوات، أفتح باب المنزل لأكتشف أنه ما من زائر.. ما من مشتاق.. ما من مهتم.. ما من طارق!

إنها فقط الأوهام التي تُعبر عن رغبتي الشديدة بأن أعلم أن أحدهم يشعر بوجودي سواي، ثم أبدأ رحلتي إلى الأريكة إيابًا وأنا أتنصت لصوت احتكاك قدميّ بالأرض، أنظر إلى باب المنزل، تمر الساعات وأبدأ التعجب، يا تُرى مَن أريد رؤيتهم حقًّا وأحترق شوقًا لزيارتهم؟ أطرق أبواب ذاكرتي فلا تفتح، فأقصد نوافذها لأسترق النظر نحو ما مضى من أيامي ومن رافقني بها، أرى وجوهًا باهتة لأمي وأبي؛ فقد مرت سنوات طويلة لابد وأنهما رَحَلا. لكن هل تزوجت؟ هل لي أبناء؟ هل لي أصدقاء؟ إخوة أو أخوات؟ لحظة واحدة.. هناك سؤال أهم من ذلك وهو من أنا؟! أنظر من النافذة المجاورة لأريكتي فأرى حديقة منزلي غُرِسَ بأرضها لوحة مكتوب فيها (منزل أرنولد). حسنًا، أنا (أرنولد) لابد أنني لم أنسَ، ربما فقط سرحت فتأخرت في الإجابة عن نفسي. لن تصمت نفسي وتكف عن التساؤلات، فأنا أحفظها جيدًا وأعلم أنها ستبدأ طرح الأسئلة عليّ ثانيةً، فهي تشتت انتباهي عن الحملقة في باب المنزل تخفيفًا من إحساسي بالخيبة. كم عمري؟ لا أتذكر أرقامًا، لكني أتذكر لحظة سقوط عيني على المرآة في أثناء رحلة الخمس خطوات نحو باب المنزل عندما لمحت عديدًا من التجاعيد بوجهي والانحناء بظهري، لم أعد أشبه ذاك الوسيم في الصورة المعلقة بالحائط، أشبه كثيرًا الكهل (ستيف) الذي كان يطرق باب الشقة -حيث كنا نقيم الحفلات- ويَدَّعِي أنني وأصدقائي نُحدث ضوضاء تزعجه. مممم لابد أنه مرّ كثيرٌ من الوقت بل كثيرٌ من العُمر.

لا أعتقد أنني أعاني فقدَ الذاكرة، ولكن بعض الصدأ تراكم على أحداث الماضي، فبِت أتذكر الأطباء والممرضات ورفاقي بالعناية المركزة أكثر ممن سبقهم بالمرور في حياتي.

في الواقع، لا أتخيلني جدًّا أو والدًا أو شخصًا حكيمًا يمتلك في جعبته عديدًا من النصائح الاجتماعية وأسرار الكون وخبرات الحياة؛ فكل ما يجول بخاطري تساؤلات فتى مراهق بُلِيَت صحته مع الزمن ويرفض الانتماء لهذا الجسد.

صوت رنين جرس خادع.. رحلة الخمس خطوات ثم العودة إلى الأريكة مصحوبًا بالخذلان. لحظات سكون ثم أنتفض فجأة من مكاني وكأني صُعِقت بالكهرباء وأنا أقول: ماذا حدث لـ(روز)؟ أَخَذَلْتُها ولم أعرض عليها الزواج؟ ثم يختفي تأثير الصعقة وأسمع نفسي تقول: فلتحزن على حالك فقط. فبعد أن أدرت ظهرك لها، احتضنها من يستحقها عن جدارة. نعم.. نعم، تذكرت أنها متزوجة الآن ولديها صبي وفتاة، وربما تلعب مع أحفادها الآن. لقد كنت مشغولًا عنها بالتمتع بحياتي وشبابي أو ما ظننته حينها متعة. لقد كنت أنانيًّا بالقدر الكافي لجعلها فترة بل فقرة مُسلية في حياتي كغيرها من الفتيات. لكن من الواضح أني لا أتذكر فتاة غيرها. يبدو أنني أحببتها حقًّا! هل فعلت؟!

تذكرت دوائي الآن، فالأفكار تترنح بعقلي يائسة بين الماضى والحاضر. قمت أتوكأ على عصا خشبية، وفي طريقي لمحت بعضَ الصور المعلقة فى ركن الذكريات، ولفت نظرى أن حياتي امتلأت بعديد من الأشخاص العشوائيين ولم

أسعَ قط إلى الاستقرار، فمعظم حياتى قضيتها في الحفلات والإنجازات الفردية المتعلقة بالرياضة وإدارة الأعمال. كنت شابًّا قوي البنية وسيمًا ذكيًّا، لكنها لعنة العمر!

لا أستطيع تقبل كوني مسنًّا، أشعر أنه ليس من العدل أن يعاملني الناس كإنسانٍ كهل. لماذا يجب أن يحكم عليّ جميع الناس بِناءً على سنوات عمري الأخيرة؟ فقد صرخت كطفل، ركضت كشاب، وقعت في الحب كمراهق، أصبت بالمرض كمصاب حرب. لدي أحلام يافع في قدرات طفل الخطوة تمثل له رحلة كفاح، جسدي لم يعد قادرًا على التماسك وهنا يكمن الخلل. ثم تذكرت الكهل (ستيف) وسرحت قليلًا في أنه كان الطفل (ستيف) ثم الشاب (ستيف) أيضًا. إنها حقيقة الكون. يا للعجب!! تعيش سنوات مزهرة ولا يتبقى منها في ذاكرتك سوى بعض الأطلال!

السماء مظلمة، النجوم لامعة في الظلام، قد حل الليل، سأتناول بعض الخبز وأنا أشاهد التلفاز، من الغريب أنني سأتعايش مع واقعي هكذا بعد نهاية حرب من ذكريات الماضي.

صدى صوت جرس الباب يكاد يدفعني للجنون، لا أذكر أنني كنت البارحة مهوسًا بزيارة أحدهم كما يحدث لي اليوم، هناك ومضات من الذاكرة تخبرني أنني قضيت معظم الوقت أمس بالفراش، سأتجاهل هذة الهلوسات السمعية وأنظر من النافذة قليلًا، سألهي نفسي بشكل حديقتي الجميل، إن

الشارع هادئ وبعض الجيران يتجولون بمنتهى السلام والتفاؤل كأنهم يخطون فوق قطعة من الجنة لا في جمالها فقط، بل في هدوئها وبعثها الراحة في النفوس. أخيرًا، طنين الجرس الوهمي توقف! استرقت نظرة نحو الباب، لم أكد أعيد نظري إلى النافذة حتى وجدت طفلة جميلة عيناها شديدتا الاتساع والزُرقة تنظر إليّ من النافذة أمامي مباشرةً وتطرق عدة طرقات خفيفة على الزجاج، تبدو كالملاك، ظهورها المفاجئ لم يفزعني، فجمال وجهها امتص أي تأثير سلبي قد أشعر به، تحملق فيّ وتقول شيئًا بابتسامة لطيفة، لم أستطع سماعها، ففتحت النافذة وقرّبت أُذُنَيَّ من شفتيها لأسمعها تقول: (سيد أرنولد، أيمكنك فتح الباب لي ولأخي من فضلك؟) إذن هذه المرة لم تكن هلوسة. فتحت الباب ووجدت شابًّا يافعًا، قد يكون في أوائل العشرينات من عمره، يا للبؤس! قد أصبح من الصعب تحديد عمر أحدهم بدقة؛ فجميع الناس أصغر مني.

(كيف حالك اليوم سيد أرنولد؟) قالها الشاب بينما يدخل بصندوق هدايا متوسط الحجم ودخلت خلفه الفتاة الملاك حاملة عديدًا من الأزهار بيد وممسكة بِكَفِّي بيدها الأخرى، كفها صغير جدًّا. لابد أنها في العاشرة من عمرها إن لم تكن أصغر بقليل، اختفى الشاب قليلًا داخل المنزل ثم عاد حاملًا وعاءَ الفاكهة، كانت الفتاة في تلك الفترة تسير بجانبي متجهين نحو المقعد الخاص بي، وكأنها ترشدني لطريقي الذي طالما حفظته، لكنها كانت سعيدة للغاية وكأنها تُعلمني خطواتي الأولى، جلسنا جميعًا وبدأت أفكر في احتمالية تذكُّري هويتهما أو

لقائي بهما من قبل. يقوم الشاب بتقطيع الفاكهة قطعًا صغيرة ووضعها في فمي، تذكرت أنني لم يعد لدي كثير من الأسنان، شعرت كأنني طفل كهل أجلس بين يدي أب شاب وأم طفلة، كنت سعيدًا بالوضع وهذا ما جعلني أتأخر في طرح سؤال "من أنتم؟"، لكنني سألته على أية حال. نظر الشاب إلى الفتاة بعد طرحي لهذا السؤال، ثم قال: "نحن جيرانك، لكننا جميعًا كأسرة واحدة. أنا (زين) شاهي (مريم)"

-جيران!!

مريم: نعم، ونحن نحبك كثيرًا وكذلك عائلة سميث وعائلة رافييل وعائلة راج.

يهم الشاب بوضع قطع من الفاكهة بفمي لكني أشير له بالتوقف؛ كي أتمكن من طرح أسئلتي وخاصةً أنني تذكرت شيئًا.

*لقد رأيتك من قبل، أليس كذلك؟

زين: في الواقع، سيد (أرنولد) لقد رأيتني كثيرًا من قبل، لكننا تقابلنا ثلاث مرات فقط خلال الستة أشهر المنصرمة، فنحن نتناوب على زيارتك أسبوعيًّا، لكنني سافرت لدراستي وعدت مؤخرًا.

هذا الفتى ربما يكون أحمق كفاية لقول هذا الكم من المعلومات والأرقام لشخص في مثل عمري. بالطبع لم أستوعب شيئًا مما قاله سوى موضوع التناوب على زيارتي أسبوعيًّا، وكان السؤال: (من يتناوب على زيارتي؟)

زين: جميع أفراد عائلة (سميث) و(رافييل) و(راج) ونحن (آل بلال) نتناوب على زيارتك يوم الأحد من كل يوم أسبوع، نقضي اليوم سويًّا، لكنك أصبحت الآن تنسى سريعًا، لذا أعتقد أنه يجب تغيير الخطة لمزيد من الزيارات.

قالها بِأَسًى وهو يربت على كتفي، نظرت إلى الأرض شارد الذهن فتدارك الفتى صمتي قائلًا: "ربما لا تذكر عندما سألتني لماذا أضيع لحظة من شبابي بالجلوس مع رجل مسن؟ لكنني أعلم جيدًا أن هذا السؤال يجول بخاطرك كثيرًا، وفي حال نسيانك شبه المؤكد لمناقشتنا حينذاك، فأريد أن أُعلِمك أنك شخص مميز في حياتي، وأن وجودي معك يضيف لوقتي قيمة وأن كل مرحلة عمرية هي شيء مؤقت في حياة الإنسان. فمن الجيد أن نجعل من أعمالنا تقييمًا مستقلًا لأعمارنا، والعيش لنا ومن أجل الآخرين يجب أن يكون سنة للحياة. نحن نتشارك الأرض والهواء والطبيعة واللحظات الترفيهية، فما المانع من مشاركة اللحظات الصعبة التي نمر جميعًا بها؟ فتشابُك الأيدي يجعل حمل الأشياء الثقيلة أسهل".

قلت له بتعجب: أين تعلمت هذا؟

قال لي بابتسامة زهوٍ: من والدي.

ثم جال بخاطري عدد المرات التي ابتسمت فيها تلك الابتسامة، ولكنه كان زهوًا فارغًا بمالي وأحيانًا بسرقتي قلوب بعض الفتيات. إن شعوري بالزهو وشعور الفتى به كانا شعورين لا يعرفان بعضهما ويتبرأ كلٌ من الآخر؛ فأنا مختال

بصندوق هدايا مُزخرف من الخارج لكن داخله فارغ، وهو لا يهتم بالصندوق فربما يكون ورقيًّا، لكنه يحوي كثيرًا من الأشياء القيّمة بداخله.

قطعت تفكيري الفتاة الصغيرة التي أخذت تُهذِب أظافري بلطف واهتمام، ثم قلت: لماذا تفعلون ذلك معي؟ لمَ تعتنون بي؟ أعرف أنك فخور بكونك بطلًا للإنسانية في سن تغلب عليها الزهو بالشباب والصحة، وأعرف أن هذه الملاك الصغيرة لابد وأنها تَرَبَّت على العناية بالآخرين كذلك، لكن ربما لم أستحق ذلك. لقد عشت حياتي من أجلي فقط. لقد سخَّرت جميع الأشياء والأشخاص من أجل إسعادي أنا فقط. لم أهتم بأحد سوى نفسي. ونهاية المطاف، أنا مسن ببيت قديم في حي فقير.

توقفت الفتاة عن قص أظافري لوهلة، وقالت بعفوية: لا تقل "حيًّا فقيرًا" يا سيد.

رد الفتي بتعجب: نحن نعلم أنك كنت شديد الثراء، لكنك قاسٍ على نفسك حقًّا يا سيد (أرنولد).

قلت له بزمجرة: لا تبدأ دروس حب النفس يا فتى.

فأكمل بابتسامة: لابد أنك لا تذكر! حسنًا، لم يكن قضاء أوقاتنا معك بدافع الإنسانية فقط، بل هو عمل يعكس علاقتنا القوية بك ومحاولتنا رد – ولو- جزءٍ من جميلك.

قلت له: أية علاقة؟ وأي جميل؟

قال الفتي: لا، لا يجب أن تنسى دورك البطولي في حياة جيرانك، لقد كنت هناك عندما انقلبت حياة آل (سميث) وآل (رافاييل)؛ فقد نشب حريق منذ عشرة أعوام وأهلَكَ منزل العائلتين وتم إنقاذهم بصعوبة، وكنت أنت الثري السبعيني القادم من (نيويورك) الذي سيقوم ببناء أفخم منزل في الحي. لكنك حولت مسار قراراتك في تلك اللحظة وقررت للمرة ربما الأولي -وربما ليست الأولى؛ لأنك اعتدت على نسيان جميل أفعالك- بناء منزلين للعائلتين المنكوبتين وبنيت منزلًا متواضعًا لنفسك وفقدت معظم ثروتك في ذلك إلى جانب بعض الأعمال الخيرية التي ظهر أثرها في كل بيت هنا وخطت كل متر من هذه الأرض.

قلت مشدوهًا: ياه.. نعم، أنا على وشك التذكر.

ابتسم الفتى: لقد اعتدت زيارتنا واعتدنا زيارتك، تشاركنا عديدًا من اللحظات الجميلة، لقد جلبت لي أجمل الهدايا في أعياد ميلادي، نحن جميعًا نحبك، أنت فرد في كل عائلة بالحي.

اغرورقت عيناي بالدموع وقلت: كيف نسيت أهم جزء في حياتي؟

وقفت الفتاة على المقعد واحتضنتني وأخذت تُقَبِل جبيني. أما الفتى فنهض من مكانه وأخذ يتجول في الغرفة باحثًا، ثم استقرت عينه على ركن الصور. فتوجه لي قائلًا: ربما لو أضفنا بعض لحظاتنا سويًّا في هذا الركن، فلن تكون مضطرًا إلى تذكر فترة شبابك.

قلت له بابتسامة: أتعلم يا (زين) إذا عاد بي الزمن لشبابي، لكنت غيرت كثيرًا من الأمور في حياتي وتخليت عن أنانيتي المُطلقة، لكنني لا أملك من الصحة والعمر ما يُهدَر في الندم. لقد كنت شديد القلق والندم قبل أن تأتي وتُقدِّم لي الجزء المفقود من حياتي معكما على طبق من ذهب، وقتها شعرت بقدر من الارتياح يلائم رجلًا ينظر إلى شريط حياته ربما للمرة الأخيرة. لذا، أريد منك شيئًا واحدًا. أُريدك أن تزيل جميع صور شبابي وتترك صورتي مع والديَّ فقط وتضيف صوري معكما، فإذا استيقظت غدًا ناسيًا كل شيء لا أريد أن أشعر بالندم والخزي من حياتي. لن يفيد ذلك الآن. كل ما أريده هو الشعور بالأمان والرضا والسلام..

ألَمٌ مزمن

هناك سِحرٌ إلهيٌّ يتعلق بجراحنا الجسدية والنفسية، نتألم، ننزف، ثم يبدأ كل جرح الاندمال، قد تبقى الندبات وقد تزول، قد تسقم الجراح مرة أخرى، وقد تتعافى في طيّات النسيان.

تفتح عينيها مستيقظة من نوم لا تعرف كم طال وقته لتجد شخصًا –ما– مُستلقَيًا بجوارها. تدقق النظر في وجهه ثم تقول لنفسها مستنكرة (لا يمكن أن يكون هو، ما الذي جمعنا في مكان واحد وعلى الفراش نفسه؟) تستوعب الصدمة، ثم تنادي بصوت قلِق: آدم؟! يفتح عينيه على الفور على الرغم من انخفاض صوتها، ينهض من فراشه ويحاول تهدئتها، ولكنها تواصل القول بعد أن انتفضت من الفراش في فزع: (كيف وصلنا لهذا؟ (يارا) صديقتي وزوجتك كيف نفعل بها هذا؟!) يحاول تهدئتها وهي تتراجع نحو الشرفة.

ساندرا.. أريدك أن تهدئي وتحاولي التذكُّر. أنتِ زوجتي الآن يا (ساندرا) ولدينا (جنا) و(مروان). أوقفت خطواتها نحو الشرفة حيث بدا ما سمعته غير منطقي، ثم جلست القرفصاء على الأرض وهي تحاول أن تتذكر أي شيء يمت للواقع الذي يتحدث عنه (آدم) لكن ذاكرتها تخدعها وتعيدها نحو الوضع الذي انتهى أمره منذ خمس سنوات. يقترب منها (آدم) محاولًا المسح بكفه على رأسها من أجل بث الأمان داخلها، لكنها تنفر منه وتبعد رأسها عن يده وتطلب منه ألا

يلمسها وألا يقترب. يطرق أحدهم باب الغرفة صائحًا: (أمي.. أمي) ينظر لها (آدم) ويحاول تهيئتها لواقع غافلة عنه: "إنه (مروان) ابننا أصبح عمره ثلاث سنوات، يحبك كثيرًا ويتألم حين تتعرفين إلى (أحمد) ولا تتعرفين إليه" نظرت له بانتباه ثم قالت: لماذا يعيش (أحمد) معنا؟ إنه ابنك أنت و(يارا)!

فرد عليها والحزن على وجه: (سأجيبك عن كافة تساؤلاتك، ولكنني أُريدك أن تستقبلي أبناءك بلهفة وحنان، فهما يعيشان كابوسًا لا يحتمله البالغون منذ شهرين).

تهيأت لمشهدها المسرحي وهي غارقة فى حيرتها. فتح الباب فدخل الطفلان (مروان) و(جنا) واندفعا نحو والدتهما التي لا تذكر شيئًا عنهما. كانت (جنا) ذات العامين طفلة هادئة وكان (مروان) طفلًا ذكيًّا. نفّذت (ساندرا) ما قاله (آدم) واحتضنتهما وكانت والدتها واقفة ناحية الباب تنظر إليها بِأَسَى، لمحتها فنهضت من جلستها وأبعدت الطفلين بهدوء ثم اندفعت نحوها وهي تقول باكية: (أمي، لا أصدق ما يحدث لي). أخذ (آدم) بيد الطفلين وخرج بهما من الغرفة وهو يمر بجانب (ساندرا)، قبَّل رأسيها وأخبرها أنه سيرتدي ملابسه في غرفة أخرى استعدادًا لذهابه للعمل وسيتركها مع والدتها قليلًا، فهو يتناوب مع الأم في محاولات تذكير (ساندرا) كل يوم بما فاتها. إنها مهمة شاقة تدفعهم لليأس أحيانًا، حيث إنهم لا يعلمون إلى أي مدى ستستمر هذه الحالة، لأيام أم لأعوام أم لأبد الدهر؟ اصطحبت الأم ابنتها نحو طاولة المطبخ وناولتها كوبَ

عصير الليمون وهي تسألها: (ما آخر شيء تذكرينه عزيزتي؟) كانت تعلم جيدًا آخر حدث تذكره ابنتها، لكنها فعلت مثلما أوصى الطبيب وطلبت منها أن تحكي بنفسها مرارًا وتكرارًا، وكل مرة تبدو كالمرة الأولى، وبدأت (ساندرا) اعتصار ذاكرتها المعتلة وقالت: "كنت أنا و(يارا) صديقتين مقربتين، وكانت متزوجة من (آدم) ولديهما (أحمد) ذو الثلاثة أعوام، لكن المشكلات بينهما كانت كثيرة ومتفاقمة، في البداية كنت أُحاول الإصلاح بينهما حتى شعرت بانجذاب نحو (آدم) وبادلني الشعور نفسه، ثم سمح لنفسه بعرض الزواج عليّ وسمحت لنفسي بالتفكير في الأمر، كلانا فكر في نفسه ولم يفكر أحد في (يارا) المسكينة وابنها البريء. نعم، إنها تلك الليلة حينما حدثني في الهاتف طالبًا مني إجابة سريعة على عرضه وخاصةً أنني كنت أتجنبه منذ أسبوع حيرةً وخوفًا من أن أُصبح من تخطف زوج صديقتها وتحكم بالإعدام على حياتهما الزوجية والأسرية. إنها تلك اللحظة التي يقف فيها الإنسان عند مفترق الطرق ثم لا يدري ماذا يفعل؟ وماذا يختار؟ ما بين الإخلاص للصداقة وخيانة الحب وبين خيانة الصداقة والإخلاص للحب. وقتها فكرت في قلبي وأخمدت معه إنسانيتى ووافقت على عرضه. تلك الليلة حصلت محادثة بينى وبينِك و تشاجرنا وأخبرتِني أنكِ غير موافقة على هذه الزيجة. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كنت منزعجة واعتقدت أن قلبى يتألم لعدم نيله مراده حتى اتصلَت بي (يارا) وقالت لي باكية في الهاتف: "(آدم) يفكر في الزواج من امرأة أخرى، لقد علمت

ذلك من زميله في العمل. لا أعلم من هي لكنني أتألم يا (ساندرا). أعلم أن علاقتي به لم تكن مثالية، لكن حقيقة أنه يريد المُضِي بحياته مع امرأة أخرى تؤلمني بشدة، قلبى يتأوه"

وقتها علمت كيف يكون ألم الحزن قاتلًا، شعرت بوخز في قلبى. نعم، فهي صديقتى واعتدت الشعور بها، أسعد لفرحها وأحزن بل وأتألم لألمها، اعتدت ذلك قبل أن تحل الأنانية محل كل شيء. كنت أعلم أنني لن أحب شخصًا كما أحببت آدم وأنه لن يحب غيري. لكن ما ذنب الآخرين في قلوب ضالة تقوى للرغبات دون أن ترق لمشاعر الأقربين، قلوب تركع للحقوق لا للواجبات؟!!

تلك الليلة وضعت رأسي على الوسادة، وقد هرب النوم والراحة والحب وكافة المشاعر مني، وبقى الألم الذي تفاقم بعد عدة ساعات عندما علمت بخبر نقلها للمشفى ووفاتها على الفور إثر نوبة قلبية".

ثم نظرت إلى والدتها وهي تقول: كيف تعايشت مع هذا الألم والشعور بالذنب؟ كيف تأقلمت مع هذا لخمس أعوام؟ كيف تزوجنا بعدها وأنجبت منه طفلين؟ كيف أشعر عندما أنظر إلى وجه (أحمد) كل يوم؟ كيف يشعر(آدم)؟

عانقتها والدتها وضمتها إلى صدرها وهي تقول في ألم: (هوِّني عليكِ يا ابنتى، فهذا حديث كل يوم وتساؤلات كل لحظة، لم توشك دموعك البارحة أن تجف، الأيام والسنوات مرت عزيزتي وأنتِ تعاملين (أحمد) كأنه ابنك وأكثر، فهو المفضل لديكِ وهو يحبك أيضًا، لم تكن الأمور في موضعها الصحيح في

البداية، لكن شعورك بالذنب جعلك تعاملين أبناءك بأمومة مثالية. كل شيء كان على ما يرام حتى أُصِبْتِ في حادث سير منذ شهرين في أثناء عبور الطريق وظللتي في غيبوبة بالمشفى لمدة ثم استفقتي بذاكرتك هذه. تماسكي من أجل أبنائك ونحن هنا من أجلك.

صمتت (ساندرا) وطلبت من والدتها أن تتركها قليلًا وخرجت لاستنشاق بعض الهواء في الشرفة وأصبح كل شيء باهتًا، حتى ألوان الزهور المزروعة بالأصيص المجاور بدت ضبابية عكس حقيقتها المبهجة، وما أشد تعجب (ساندرا) من قدرها!

كان من الممكن أن تفشل علاقتها ب(آدم)، لكنها نجحت!

كان من الممكن أن يُفضح مخططها قبل أو بعد رحيل (يارا) وتصحبها لعنات البشر في كل خطوة، لكن الأمور بدت طبيعية بل وأقسم بعضهم على شدة وفائها لصديقتها الراحلة بتربيتها ل(أحمد)!

كان من الممكن أن تكره (آدم) أو يكرهها هو ويسعى كل منهما للانتقام من الآخر، لكن هذا لم يحدث!

واستبدل القدر كل العواقب بضميرها القاسى وذاكرتها المنتقمة، فلا ترى سعادة ولا تحظى براحة ولا تعطي نفسها حقًّا للتطلع لأي منهما.

دخل (أحمد) الشرفة فاستدارت له (ساندرا) وهي تمسح دموعها، ثم عانقته وأخذت تتحسس وجهه الذي يشبه كثيرًا وجه والدته المتوفاة وهي تقول

مبتسمة: (إنك تكبر سريعًا عزيزى) فيعانقها قائلًا: (أحبك أمي) لم تزدها عذوبة تلك الجملة سوى ألمًا فوق ألمها.

كان يرتدى زيه المدرسي وعلى استعداد للانطلاق مع والده خلال دقائق، دخلت (ساندرا) غرفتها وأخذت تتفقد ملامحها فى المرآة، لقد بدت منهكة فقدت رونقها فبدا وجهها شاحبًا حتى جاء (آدم) قائلًا بحذر: (كيف حالك الآن؟) نعم، فهو ينتظر ذلك الرد الذي يكرهه والذي اعتاد سماعه يوميًّا منذ شهر، ويضطر لإجابته تارة ويتهرب منه تارة أخرى، ألا وهو: (كيف تشعر يا (آدم)؟)

آدم: الوقت متأخر اليوم وأريد اللحاق بمدرسة (أحمد). أعدك عزيزتي أن أُجيبك غدًا؟

ساندرا: أتهزأ بي؟ أنت تعلم أن غدًا سيكون كاليوم وكالبارحة، أُريد إجابة الآن.

آدم بتأثر: أشعر كما تشعرين وأكثر، فأنا لا أنسى هذا السؤال ولا أقترب من نسيانه، ويزيدني أَسَى ما يحدث لكِ. لم أتوقع قط أن تؤول الأمور إلى هذا.

ساندرا وهي تمسح دموعها المنسابة: كيف تخطينا وفاتها؟

آدم: كان (أحمد) هو السبب الرئيس، لقد كان زواجنا مهمة رسمية من أجل تربيته وتعويضه عما فقد، ثم تأقلمنا مع الوقت وكوَّنا عائلتنا. لقد ذهب كل شغف واختلطت السعادة بالألم، لكننا اعتدنا تذوق المُر في العسل.

تنهدت (ساندرا) بعمق وهي تقاوم دموعها، ثم قالت: من المفترض أن أقضي يومي بأية طريقة؟ ابتسم آدم وقال: إن كنتِ لا تمانعين، فسأصطحبك مع الأطفال بعد العمل لتناول الغداء بأحد المطاعم، فأنتِ عادة ما توشكين أن تستيقظي ثم نراكِ تعودين للنوم ثانية، وأرجو أن توافقي هذه المرة.

كان يترقب رد فعلها بيأس لأنه يعلمه، وبالفعل، جاء ردها مؤلمًا كالمعتاد: اتركوني وحدي، أنا مشتتة.

قالتها ثم نظرت إلى عينيّ (آدم) الحمراوين ووجهه اليائس وهو يقول: لا بأس، اعتدت هذا الرد.

ساندرا بعد تفكير: حسنًا، سأذهب معكم اليوم.

آدم وقد بدت على ملامحه نفحة من الأمل: إنها أول مرة منذ شهر تقبلين فيها عرضي.

خرج (آدم) ومعه (أحمد) وانشغلت والدتها برعاية (جنا) و(مروان). جلست (ساندرا) على سريرها لساعات هائمة تفكر في الماضي البعيد وكأنه البارحة، تحاول فتح أية نافذة في ذاكرتها ليدخل الهواء والنور، ثم وجدت مُفَكِّرَة ملاحظات بها قلم على المقعد المجاور للسرير، فتحت المفكرة لتجد بها عديدًا من عبارات الألم والندم وتحقير الذات. شعرت أنها ضائعة في حلقة من الألم لا ينتهي الدوران بها، ثم أخذت تُعيد كلام (آدم) ووالدتها في عقلها. استوعبت أن حالتها إذ لم تتحسن، فستكون محبوسة في أسوء يوم في حياتها

وسيؤول ذلك لنهايتها بالتأكيد. فكرت في أنها ربما تستحق هذا الألم. لكن ما ذنب الأولاد؟! مسحت دموعها وكتبت في صفحة جديدة "سأتغاضى عن الماضي من أجل أبنائي (أحمد) و(مروان) و(جنا). (مروان) و(جنا) هما أولادي وأمانيَّ المحققة وكل جميل حُرِمْتُ من التمتع به على الرغم من امتلاكه. أما (أحمد) فهو جزء ملائكي من (يارا)، سيرافقني ما حييت ويجب أن أرعاهم وأقوم بواجبي كاملًا نحوهم".

وعقدَت العزم على كتابة ما تفعله خلال اليوم وما تنوي أن تفعله اليوم التالي من أجلهم فقط.

نهضت من سريرها وذهبت لقضاء بعض الوقت مع (مروان) و(جنا) ووالدتها. كانت تتأمل ملامحهم بتركيز وكأنها تتحدى ذاكرتها بإبقائهم داخلها. التقطت بعض الصور معهم وهي تُجبر نفسها على الابتسام؛ كي توحي لنفسها في اليوم التالي أنها تتعايش مع الأمر. قضت بعض الوقت أمام المرآة تبحث عن نفسها الضائعة المشتتة، ثم ذهبت للاستحمام. وعندما عاد (آدم) و(أحمد) للمنزل كانت مستعدة للخروج مع أسرتها لمرة تبدو الأولى لها.

مرت الساعات و(آدم) متعجب، لا يعلم إذا كان تفاعل (ساندرا) معهم وتقبلها للحياة من علامات تقدم حالتها أم أنه فقط شكل من أشكال التعايش والاستسلام. وباتت تتأمل وجوه جميع الناس وخاصةً أحمد، وكثيرًا ما كانت تمسك يده قائلة: (سأعتني بك جيدًا). كان يومًا طويلًا حيث اصطحبهم لتناول

الغداء في أحد المطاعم، ثم تجولوا قليلًا للتسوق. وعندما عادوا للمنزل واطمأنت على الأطفال بفراشهم وقبّلت أمها، دخلت حجرتها، وضعت رأسها على الوسادة وأخذت تتأمل وجه آدم الذي سبقها بالنوم وهي حائرة ما بين النقم على تناسيه وتعايشه مع الذنب، والإشفاق على ما يمر به من مشاق كل يوم بسببها. استدارت وأخذت تنظر إلى الساعة التي تشير للواحدة صباحًا، وقد بدأت الآلام تقتحم قلبها مجددًا. تلك الآلام التي شعرت بها وقت مكالمتها مع (يارا) في أمس ذاكرتها، تلك الآلام التي لا تضاهي بالتأكيد ما شعرت به صديقتها حينذاك، لكنها آلام مزمنة تتجدد مع كل صباح وكل لحظة وكل وقت، وكأنها ضريبة لكونها سببًا فيما حلّ بحياة صديقتها. تحاول أن تُغمض عينيها محتملة شدة الألم لا ترجو شيئًا سوى الغفران.

سأنتظر حتى الشروق

تسطع الشمس ثم تغيب، وهناك من يضبط عداد استقباله للحياة على أنه الظلام بعد الشروق، وهناك أيضًا مَن يُهَيِّئ نفسه على أنه الشروق بعد الظلام، إما أن يكون أملًا بعد يأس وإما أن يكون يأسًا بعد أمل، إما أن يصير فرحًا بعد حزن وإما أن يصير حزنًا بعد فرح، وما الحياة إلا حلقة من مشاعر مُلونة بالأبيض والأسود، نقطة البداية للون ما تكون نهاية للآخر.

نحن بشر نسير في الطرق نفسها، وننظر إلى الأشياء نفسها، ونُعَرّض للمواقف نفسها تقريبًا، نرى الضوء وإن اختلفت شدته بأعيننا، لكن عندما يَعُمّ الظلام، إما أن نغرق في غياهبه وإما أن ننتظر حتى الشروق.

"في الحادي والعشرين من ديسمبر من عام ٢٠١٤، حظت مدينة (ريكيافيك) عاصمة أيسلندا بِحَظٍّ قليل من الشمس؛ حيث أشرقت فقط لأربع ساعات وسبع دقائق، ولم يكن ذلك الوقت بوحيد وفريد في امتناع الشمس عن أهل تلك المنطقة وحجب عطاياها عن أعينهم وأجسادهم، ومن الصعب مُقاومة التأثيرات السلبية للأيام المظلمة على نفوس البشر، فبعض الناس عانوا من (متلازمة الإحباط الموسمي) المصاحبة لتلك الأجواء، وقاوم بعض آخر

ساعيًا في طريقه لإزالة العقبات، وها هي الظاهرة تعيد نفسها بصورة أكثر قسوة بعد ما يقرب من قرن ونحن مكتوفو الأيدي. فهل من معجزة؟!"

كان صوت المراسل الصحفي يصدر مدويًا من تلفاز أحد المتاجر بالمدينة، ينتشر في جزيئات الهواء ويُحمَل إلى آذان المارة، ثم يتلاشى دون الإصغاء إليه أو الاهتمام به؛ فقد اعتاد معظم أهل هذه المدينة اللامبالاة مؤخرًا، وفي رحلة عبر الزمان والمكان كانت تتباطأ عقارب الساعة في قلوب السكان على الرغم من سرعة قطار العمر، كانت السابعة صباحًا في يومٍ ما من القرن الثاني والعشرين، وفي أحد المنازل بالمدينة الباردة المظلمة (ريكيافيك):

صوت ينادي من إحدى الغرف: (شووووون)، تعال هنا، ابحث لي عن نظارتي لا أستطيع الرؤية من دونها.

يركض فتى نحيف قصير القامة مُندفعًا نحو النداء، يدخل الحجرة التي يكمن داخلها مصدر الصوت، يقوم بإضاءة الغرفة، ثم يبتسم ابتسامة تطوي وراءها تعجبًا متواريًا خلف أسوار ملامحه، ينظر إلى سيدة أربعينية شقراء شاحبة البشرة قائلًا: إنكِ ترتدينها يا أمي!

فترد في عدم انتباه: نعم، أصبحت أرى الآن عزيزي، شكرًا لعثورك عليها.

أخذ الفتى يتمتم بأنها كانت مرتدية النظارة قبل وصوله، وأن المشكلة تكمن في أن ضوء الغرفة كان مغلقًا، لكنها لم تنتبه إليه وأخذت تُرَتِّب بعض الأشياء المُتناثرة على الأرض، لقد كانت تعبيرات وجهها تائهة ومُبعثرة

كأفكارها، لكنها أعطت الأولوية للملمة الأغراض المتناثرة عن تجميع شتات أمرها.

(شون) كان يستيقظ مبكرًا كل يوم ليذهب إلى مدرسته (فولداسكولي) عكس كثير من زملائه الذين قرروا التخلف عن حضور عديد من الصفوف الدراسية؛ فهو فتى نشيط وكثير الابتسام، تشع منه حيوية وطاقة ناشرًا أضواء روحه على مرايا مَن حوله. نعم، إنهم مرايا لا تمتص تلك الأشعة بل تعكسها مرة أخرى فلا يشعر بوجودها وسطوعها سوى ذلك الفتى، وجهه يُذكِّر كل من يُقابله بقرص الشمس، الشمس المتوارية خلف السحب منذ أكثر من خمسة أشهر، السماء تبدو قاتمة مُلَبدة بالغيوم، مما يجعل الليل قاسيًا والنهار كوقت الغروب عاكسًا ضوءًا خافتًا لا مصدر واضح له، لا يستطيع أهل (ريكيافيك) الاعتياد على هذا البرد وذاك الظلام.

أسرة (شون) كفّت عن الذهاب إلى كنيسة (هولوجرام) -كنيسة الرعية بريكيافيك- منذ ثلاثة أشهر، عندما شعرت أن صلاتها غير مستجابة، ووجدت قوى الشر بينها سبلًا ممهدة؛ فانقسمت بين المُشكِكين بالعقيدة والمؤمنين بغضب الرب على أهل المدينة، والدته توقفت عن الذهاب لركوب الخيل، وأخته –ذات الثمانية عشر عامًا- لم تعد تمارس رياضة السباحة التي كانت بارعة فيها بل وحاصلة على عدة ميداليات ذهبية وفضية في مسابقات خاصة بتلك الرياضة

حينذاك، أما بالنسبة لوالده فأصبح يذهب للعمل بصورة غير منتظمة على الرغم من أنه كان طبيبًا ماهرًا.

(شون) على الرغم من صغر سنه يتعامل مع الأمور وينظر إلى الأشياء بطريقة مختلفة، المدينة بأكملها تريد التجول داخل عقل الفتى ذي الابتسامة الأبدية؛ ليعرفوا أسباب تفاؤله غير المبرر بالنسبة لنفوسهم التائهة، لكن هيهات لهم رؤية الضوء من نوافذهم المُغلقة القاتمة، أوقفته إحدى معلمات الصف بالفصل -تدعي سيدة (أماندا) والمُلقّبة بين زميلاتها ب (نصف الكوب الفارغ)- فقد عُرِفَتْ بتشاؤمها منذ زمن طويل- واجتذبته من قميصه الملوّن قائلة له: ألا ترى يا فتى أن هذا اللون يلائم الصيف الذي رحل عنا للأبد؟ ماذا يدور بعقلك؟ أخبرنا.

فانتزع قميصه من قبضتها، ورفع أمام عينيها أصيصًا به ورد أحمر صغير قائلًا: لقد تفتَّح هذا الورد في شرفة غرفتي، عليكِ أن تسأليه سيدة (أماندا) لِماذا لم تصبح أسود كأيامنا المظلمة هذه؟ ثم ابتسم قليلًا، وجلس في مقعدهِ بهدوءٍ، تاركًا إياها غارقة في حيرة.

كان الفتى يستيقظ في ميعاد المدرسة كل يوم، يُعِد أدواته، ويحمل أصيص الزهور الخاص به ويخترق به ظلمات الشوارع التي عجزت مصابيحها عن التعويض عن غياب الشمس، وبعد انتهائه من المدرسة التي كان يقضي معظم أوقاتها في الملعب أو المكتبة؛ لتغيُّب معلمي الصف كثيرًا، كان يذهب إلى السينما

أو بعض المطاعم أو يتنزه في شوارع (ريكيافيك) الجميلة أو يذهب إلى الكنيسة، ثم يعود إلى منزلهِ ويقف أمام المِرآة ويبدأ التحدث؛ فهو لم يجد مَنْ يفهمه سوى نفسه وينظر إلى الأمور من زاويته الخاصة، حتى وجد ضالته بمرور الأيام عندما قرر التردد على منزل جاره الكهل الوحيد الذي فقد زوجته منذ عامين، وكان يتجاذب معه أطراف الحوار فيشعر بارتياح وثقة في معتقداته، فكثيرًا ما كان يخرج الفتى لشُرفة حجرته، فيجد الكهل جالسًا في حديقة منزله ناظرًا إلى السماء، وفي كثير من الأحيان متحدثًا إلى نفسه.

كان الكهل (وايلد) مركزًا لإثارة فضول (شون) قبل أن يُصبح صديقه ورفيق سمره في الليالي المظلمة، اعتادا أن يلتقيا الساعة الثالثة والنصف؛ حيث إنه من المفترض أن يكون وقت الشروق في المدينة في ذلك الوقت، وكان يحكي للفتي عن زوجته الراحلة التي يشعر أن روحها باتت تسكن في نجم مُعين يظهر في السماء في بقعة معينة عند جلوسه بحديقة المنزل، ولم يَكْتَفِ بتخيُّله هذا بل جعل من ظهور ذاك النجم أو اختفائه قانونًا لتحديد مزاج زوجته اليومي في العالم الآخر. كما أنه لم يعد ينظر في مرآة غرفتها حيث يُخيل إليه رؤيتها بالهيئة المتهالكة التي رحلت عليها. أما النظر بالنجوم فيتيح له تخيل وجهها الباسم المشرق.

دعا (وايلدُ) الفتى لقضاء الليلة معه؛ حيث سيستقبل ابنته وزوجها وأولادها المقيمين في (إسبانيا) والقادمين في رحلة قصيرة ل(ريكيافيك).

اجتمعت العائلة ورحبوا ب(شون)، تحدثوا قليلًا عن معيشتهم في مدينة فالينسيا -مدينة الفنون والعلوم- ثم طلبوا من الكهل أن يحكي لهم عن بداية هذه الظاهرة الغريبة لغياب الشمس، فطلب من (شون) التحدث.

كان شون جريئًا واثقًا بنفسه على الرغم من قدراته الضعيفة في ترتيب القصص عند السرد والتركيز على نقطة واحدة في الحوار، فما يوشك أن يفتح موضوعًا حتي يجد نفسه تحدث في عدة موضوعات أخرى. فاتجهت العيون نحوه بما فيها العيون البُنية الواسعة لتلك الفتاتين الصغيرتين حفيدتيّ الكهل (وايلد)، وبدأ إعدال قميصه وتهيئة نفسه للتحدث بثقته المعتادة.

شون:

"لا أعلم ماذا حدث بالضبط، فقد استيقظت الساعة السادسة صباحًا منذ خمسة أشهر، كان الجو مُلبدًا بالغيوم، وتوقعت أنه يوم شديد البرودة، لكن لم أتوقع أنه سيكون شديد الظلمة أيضًا".

"لقد كان من الصعب آنذاك تخيُّل أن أمس كان آخر يوم للشمس في مدينتنا الجميلة، والأصعب هو إقناع نفسي قبل الآخرين أنها ستُشرق يومًا ما من جديد".

"لقد كنت أذهب إلى كنيسة (هولوجرام) مع أسرتي، وجميع الأديان كانت تلتقي في الساحة الكبيرة أمام كنيستنا، كلٌ يدعو بطريقته ومعتقده متمنيًا وراجيًا عودة الأمور لطبيعتها".

"كنت أذهب إلى المدرسة، ويذهب والديّ إلى العمل وأختي إلى الجامعة، وكل أهالي المدينة كانوا يحاولون التعايش مع الوضع في البداية، ثم بدأ السقيع يُعرقِل تحركنا جميعًا، وأصبح اللون الأسود هو الراعي الرسمي لملابسنا ثم لرؤيتنا للأشياء حولنا".

"أُصبت بوعكة صحية لمدة أسبوعين، كنت ملازمًا فراشي، وبعد شفائي وجدت أنه لم يعد شيء كما كان".

(ديانا) ابنة (وايلد): كيف تغير كل شيء؟

شون: توقفت أسرتي عن الذهاب للكنيسة وعن الذهاب لمعظم الأماكن. في الواقع لقد أصبحوا حبيسي المنزل في كثير من الأحيان.

والدة زميلتي (سامانتا) انتحرت الشهر الماضي؛ لأنها ظنت أن غياب الشمس رسالة من الرب إلينا بأن نغيب أيضًا عن هذا العالم، فأصيبت باكتئاب شديد، وليست المشكلة الرئيسة في انتحارها بل في زرعها لهذه الفكرة السامة في عديد من العقول قبل رحيلها، فعَقِب حادثها توالت عدد من الحوادث الانتحارية المماثلة وما زالت مستمرة حتى لحظتنا هذه، حيث نشأت مجموعة

يطلقون على أنفسهم (الأحرار)، ويُطلِق عليهم الناس (الهاربون من الظلام)، أما أنا فأُطلق عليهم (ضِعاف النفوس) أو (الحمقى).

إحدى الحفيدات: وكيف حال (سامانتا) المسكينة؟

شون: (سامانتا) -ابنة مؤسسة تلك المجموعة- توقفت عن الحضور للمدرسة، وانقطعت أخبارها؛ ذلك أنها رفضت الرد على رسائل أي شخص على مواقع التواصل الاجتماعي.

لقد عُرِفَتْ هذه الفتاة منذ زمن على أنها فتاة صلبة، ففي الوقت الذي تصرخ فيه مثيلاتها من فتيات الصف عند رؤيتهن لحشرة زاحفة أو كسر أحد أظافرهن، كانت هي تأبى التأوه من ذراعها المكسور، لقد كُسِرَ ذراعها منذ شهرين عندما انزلقت من سلالم منزلها وهي مُسرعة نحو والدتها مدمنة الكحول، كنت ألاحظ في سيدة (إيميلي) والدة (سامانتا) عدم توازن مشاعرها، فإما أن تكون شديدة السعادة لدرجة تدفعها إلى الرقص والضحك المتواصل وعدم الرغبة في النوم؛ حتى لا تُفوّت لحظة من حياتها المبهجة، وإما أن تكون شديدة الحزن لدرجة إنهاء حياتها البائسة للأبد.

الجد (وايلد): احْكِ لهم يا فتى ما حدث في صف المعلمة (سيرا).

شون: في صف المعلمة (سيرا) الأسبوع الماضي، قالت لنا: إن بلدنا شهدت اتفاقية إنهاء الحرب الباردة عقب الحرب العالمية الثانية لكن كيف سنواجه هذه الحرب الأكثر برودة؟

لقد قالتها فانفجرت فتاة في الصف من البكاء، فرفعت إصبعي طالبًا الإذن بالتحدث، وعندما سمحت لي وقفت في منتصف الفصل الموجود فيه خمسة طلاب من أصل خمسة عشر طالبًا وقُلت: سننتظر حتى الشروق.

ابتسمت المعلمة وقالت: ربما هذا الحل الوحيد الذي لم نجربه عن قناعة.

رد زميل في الصف متمردًا ومتحديًا: لقد جربناه بالفعل يا سيدة (سيبرا)، جربناه لعدة أشهر، هل من المفترض أن ننتظر طوال حياتنا؟

أسرعت بالرد عليه قائلًا: ليس هناك نقطة نهاية للانتظار؛ لأنه قائم على قوة داخلية يُغذِّيها الإيمان والثقة وقوة النفس ألا وهي الصبر، أما الجزع فنقطة بدايته هي نهاية لكل شيء.

قالت نيللي (إحدى زميلات الصف): لا أفهم شيئًا!

فتقدمت نحوها قائلًا: في حالة اضطررت للعيش في خطر، أُفضّل أن أظل مؤمنًا بالنجاة على أن ألقي بنفسي في التهلكة.

لقد كنت أنشر عديدًا من المشاعر المُتضادة في النفوس البشرية، فهناك من تلمع عيناه أملًا، وهناك من يُثار غيظًا، وهناك من يضحك شفقةً على حالي وهو الأكثر جدارة بالشفقة.

الأمور لم تعد واضحة الآن، وأصبح الإحباط قاتلًا متسلسلًا يستفرد بكل شخص على حِدة، وأصابت سهام الاكتئاب السامة عائلتي، فتوقفت أمي عن إعداد الطعام وترتيب المنزل، وأبي توقف عن الذهاب للعمل، أما أختي

فتوقفت عن ممارسة الرياضة وأصبحت دائمة الخروج مع مجموعة جديدة من الأصدقاء المُتَخذين نهج مجموعة (الأحرار)!

أما أنا فأؤمن بأن الشمس لم تغب، ولكنها فقط حُجِبت لفترة ما يختبر فيها القدر صبرنا، وسينتهي هذا الامتحان وتنقشع هذه الغُمة قريبًا.

كنت أتحدث مع صديق عربي لي عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي، وقال لي إن هناك مقولة تنتمي لدينه الإسلامي مفادها أن الإنسان إذا توقع شيئًا فيه خير، فإنه سيحدث بالتأكيد ولو بعد حين.

وها أنا ذا أجلس مع الجد (وايلد) كل ليلة حتى الساعة الثالثة والنصف صباحًا، أُحضر الكاميرا وأضبطها نحو اتجاه شروق الشمس، وأنتظر المعجزة، وعندما يتصل بي أحد من عائلتي من أجل عودتي للمنزل، أرد عليهم بعبارتي المعتادة: "سأنتظر حتى الشروق"، حتى أصبْحت موضع سخرية لعائلتي وظلوا يُرددون: (لو لم نُسَمِّهِ شون -أي أشرق في اللغة الإنجليزية- لكان الوضع أفضل)، وأصبحت هذه هي المزحة الوحيدة في حياتنا.

انتهي الفتي من حكاياته، وقد اندمجت عائلة (وايلد) كثيرًا مع هذه القصة بل القصص التي لم يتوقع أحد أنها ستكون واقعًا في يوم من الأيام، أخذوا يمدحون في آراء الفتى وأنها تُشبه كثيرًا آراء الجد الذي وصفوه ب(نبض العائلة).

خرجوا جميعًا إلى حديقة المنزل وقد أعدّوا بعض الحلوى، ثم أخذوا يتحدثون عن المواقف الفريدة التي واجهها كلٌ منهم في حياته، حتى الفتاتين الصغيرتين كانتا لهما قصصهما المرحة والطريفة.

وفي قمة اندماج جميع الحضور بتبادل أطراف الحديث حدثت المعجزة، لقد أضاءت السماء قليلًا، وبدا شعاع برتقالي خافت في السماء، ثم بدأ الانتشار، كأن الشمس تُحارب السُحب من أجل الظهور، الرءوس ارتفعت نحو المشهد، والعيون أضاءت، والأفواه ما بين الابتسامة والذهول، وكاميرا الفتى كانت هناك ترصد معهم اللحظة التي غفا عنها معظم سكان المدينة النائمين.

وبمرور الثواني، كانت الشمس قد أشرقت واضحة في السماء، استمد الفتى منها قوة تُعزز إيمانه، وبدأ يجري في الشارع المقابل للحديقة وهو يهتف: (لقد أشرقت.. لقد أشرقت.. أخبرتكم بذلك.. لقد حدثت المعجزة.. لقد أشرقت)، وأصبح الهتاف متواصلًا، فاستيقظ بعض الجيران، وأسرعوا نحو شُرفاتهم، يُرشدهم صوت الفتى للنظر إلى الأسفل لكن قوة جذب مشهد الشروق كانت أكبر، فكانت أنظارهم تُعَلّق نحو السماء، وكأنه مشهد ظهور البطل وهتاف الفتى هو الموسيقى التصويرية له، وخرج المختبئون في ظلام النوادي الليلية والمطاعم وغيرها.

كان صياح (شون) قويًّا مستمرًا، وأخذ يركض في الشوارع المجاورة، وعائلة (وايلد) ما بين فخر وذهول وسعادة وخاصةً الجد، وتعالت هتافات

ضئيلة من الشرفات قائلة: [لقد عادت من جديد] قبل أن تزدحم الشوارع بسكان المدينة الذين قرروا الاحتفال بالشمس بالهتافات والتصوير ورصد اللحظات المؤثرة على هواتفهم وعلى مواقع التواصل الاجتماعي. لقد عاد الأمل لبعضهم وزاد لدى القليل ووُلِد من جديد لدى كثيرين، وقد ضلَّ وخسر من لم ينتظر حتى الشروق.

قمة اللاشيء

هناك قمم لأماكن عديدة مهما اختلف ارتفاعها، وقمم لإنجازات مؤثرة وإن اختلفت مجالاتها، وقمم لمشاعر كثيرة مهما كانت متناقضة، ولكن هل يوجد قمة للاشيء؟

استيقظت صباح اليوم بسبب نفاذ أشعة الشمس القاسية من سقف غرفتي واختراقها لعينيّ فاضطرتني للاستيقاظ، وما إن فتحت عيني حتى رأيت السماء في مواجهتي بلا حائل بصري. في البداية ظننتني أحلم لكن عندما دققت النظر لأستوعب هذا المشهد الغريب وجدت أن سقف الغرفة ما هو إلا جزء من بلورة زجاجية ضخمة تشمل جوانب وأرجاء غرفتي عدا الأرضية ثم اكتشفت أنها ليست غرفتي وهذا ليس سريري. وبعد صراع قصير بين الذهول وتكذيب عينيّ، انتفضت خائفة لتَفَقُّد المكان مسرعة نحو أركانه باحثة عن مخرج فكانت المفاجئة. هذه الغرفة مكتملة بوسائل الترفيه والراحة والطعام والشراب والملابس لكن لا مخرج وأيضًا لا مدخل لهذه الغرفة.

في لحظة، انتابني الشعور بالتعجب ليطغى على شعوري بالخوف، وعندما ألقيت نظرة من الجدران الزجاجية رأيت الناس يسيرون في الشوارع بالأسفل والمباني والسيارات وجميعهم كانوا هناك بحجم أصغر من حجمهم الطبيعي، وكأني محبوسة في بلورة مُعلقة في الهواء مُعلِنة تمردها على الجاذبية الأرضية لا

صلة بينها وبين سطح الأرض وما يعيش عليها من كائنات، ما هذه الغرفة التي يفصلها حوالي ثلاثمائة متر عن الأرض وربما أكثر؟ كيف أتيت إلى هنا؟ ولماذا؟!! أتحدث لنفسي.

أنا فريدة طالبة بالعام الأخير في كلية الإعلام جامعة القاهرة، أعيش في جاردن سيتي، أشعر بقيمة وجودي في حياة كل مَن أعرفهم ومسؤليتي بجعل حياتهم أفضل. فأنا مميزة في كل شيء، لديّ سيارتي وحسابي المصرفي وفرصتي الذهبية للعمل كإعلامية بالقنوات الإذاعية طالما تناولت الألسنة الحديث عن جمالي وأناقتي وفصاحة لساني وذكائي أيضًا، ولكن ذكائي لا يُساعدني اليوم وعلى الرغم من مرور وقت ليس بقصير على استيقاظي، فما زلت لا أفهم سبب وجودي هنا. تدور التساؤلات في عقلي وتواصِل الدوران دون جدوى، لكن عليّ الاعتراف أن المنظر من الأعلى رائع طالما آمنت أن العلو والارتقاء يلائم شخصيتي، كما أن صورتي بزجاج البلورة تزيدني ثقة في ملائمتي للكاميرا في حياتي العملية مستقبلًا.

لا أستطيع الجزم أية منطقة هذه التي تطل عليها بلورتي، لكن التمرد على الجاذبية الأرضية رائع حقًّا كتمردي على كل من يحاول إحباط رغبتي الجامحة بالنجاح في الحياة وما ينتظرني من مستقبل فريد كاسمي.

الفكرة الوحيدة التي تطرأ على بالي الآن هي أن أعيش بطريقة شبه طبيعية بما أن كل ما أحتاجه أجده هنا، ولا يوجد شكل من أشكال الخطر حتى يُحل لغز وجودي هنا.

تناولت أطعمة شهية ومشروبات مثلجة تُلائم حر يوليو، وعلى الرغم من شبعي وإفراطي في تناول ما أُحب، فما تناولته ليس إلا نقطة في بحر ما يفيض على هذه المائدة الفخمة.

أخذت فترة أختبر صلابة كل جزء من البلورة وأتعجب من عدم وجود حفرة أو حتى خدش يُشير إلى طريقة دخولي إلى هُنا، واستمر الوضع حتى حلّ المساء.

استلقيت على السرير، وأخذت أتأمل القمر وجماله وكِبر حجمه وقُربه مني أكثر من ذي قبل، وكأني أستطيع لمسه بمجرد خروج يدي من البلورة وظللت هكذا حتى أغرقت في سبات عميق لا يُلائم استيقاظ التساؤلات برأسي.

بعد فترة يصعب عليّ تحديدها، سَيْطَرَ على قلبي الشعور بالخوف، ذلك الخوف الذي كان يُسمعني دقات قلبي على الرغم من غرقي في النوم. فتحت عيني مفزوعة أتساءل هل أنا ميتة وهذه روحي التي تسكن البلورة؟! فبالرغم من نومي العميق، فإن عقلي لم يتوقف عن التفكير في الأسباب كما يُقال "العقول النائمة تفكر بحرية أكثر".

أنا حقًّا لا أتذكر ما حدث أمس وأتى بي إلي هُنا! فربما كنت أقود سيارتي بسرعة كبيرة ووقع حادث أودى بحياتي، وربما تهورت وقمت بالسباحة في منطقة غريقة كالتحدي لذاتي وربما حسدتني إحداهن فتوقفت دقات قلبي دون سابق إنذار.

انتفضت من مكاني ثانية أبحث هنا وهناك عن أي دليل على بقائي على قيد الحياة، وبعد البحث والتنقيب، وجدت هاتفي الجوال فاطمأن قلبي قليلًا. فكرت في الاتصال بأبي، ولكني تذكرت أنه سافر لعمله ب(نيويورك) فلن يستطيع نجدتي. وكان الخيار التالي هو أن أتصل بأمي. وبعد ثوانٍ من الطلب، سمعت صوتها فقُلت في لهفة: "أمي أنا هنا في بلورة معلقة في الهواء" ليأتي ردها: "عزيزتي، لا أسمعك جيدًا، عن أية بلورة تتحدثين؟"

-أمي لقد استيقظت في الصباح ووجدتني في غرفة في ال....

-عزيزتي، أيمكنك الوقوف في مكان داخل التغطية؟ أنا حقًّا لا أستطيع سماعك.

وبعد محاولات فاشلة لتسمع صوتي، انقطع الاتصال. فكرت في الاستعانة بشبكة الانترنت والتواصل مع أقاربي وأصدقائي عن طريق حسابي على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، لكن المفاجأة أن شحن الهاتف وصل إلى 2٪ يا للهول! كيف سأتصرف؟!

ليس أمامي سوى فرصة واحدة برسالة استغاثة واحدة، ولكن لمن أُرسِلها؟ فكرت في أخي ولكني تذكرت تلك المشادة الكلامية بيننا منذ أيام حيث نعتّه ب(الغبي والفاشل)؛ فهو يُطالبني طوال الوقت بأن أُقلل من كلمة (أنا) في حديثي وإعطائي للنصائح، فنجاحي يُشعره بالنقص، وعلى الرغم من ذلك فهو يأبى الاقتداء بي والسير على خُطايّ. لذلك إذا أرسلت له رسالة أُخبره أنني في بلورة في الهواء، فإنه سيظن أني أسخر منه وأتمادى في التقليل من شأنه. حسنًا، سأُرسل هذه الرسالة إلى (هايدي) صديقتي على الرغم من أنها قد تنتابها الشماتة بوقوعي في مأزق؛ فأنا دائمًا ما أحل المشكلات ولا أقع فيها، لكن ليس لديّ خيار آخر.

(هايدي أنا في بلورة في الهواء، المنظر رائع من هُنا، لكن لا أعلم كيف أتيت وكيف أخرج؟)

هايدي: (هههههه، حسنًا، اقتنعت أنك متميزة دائمًا يا (فيرو) وسنجدك في الفضاء قريبًا) وفُصِلَ الهاتف بمجرد قراءتي هذه الرسالة السخيفة. فهي تظنني أمزح أو أُحاول إثبات تميزي عليها. إنها حمقاء غيرتها مني أصابت عقلها بالصدأ وأضاعت آخر محاولة للتواصل هاتفيًّا بأحد للمساعدة. أعلم أنه شيء مُحبط، لكن على الأقل تأكدت أني ما زلت على قيد الحياة.

أفقد شعوري بالوقت، ومشاعري غير صامدة وسط العاصفة؛ فهي تتبدل وتُغير اتجاهاتها سريعًا، فالآن يُسيطر عليّ شعور أنني مُصطفاة من الله، فلقد

وصلت لشيء لم يصل غيري إليه. كنت أعلم أني فريدة كاسمي. لذا لا يستطيع أحد الوصول إليّ في البلورة ولكن تُرى لأية مهمة اصطفاني؟!

بدأ يُزعجني عدم رؤية الناس لي وعدم إدراكهم إنجازي. هُم يعيشون حياتهم بالأسفل دون حتى الالتفات لهذه البلورة المذهلة التي أمتلكها الآن وأعيش فيها وأستمتع بوسائل الرفاهية داخلها، فكيف سيتحقق إنجازي دون إشارة الأصابع إليه وتَحَدُّث الألسنة عنه؟!!

حسنًا، قد طفح الكيل يجب أن أتحرك، لم أفعل شيئًا الساعات الماضية سوى تناول الطعام والشراب والنوم المتقطع والتفكير غير المُجدي. حان وقت العمل لاستخدام ذكائي وخبرتي في إزالة العقبات. فوفقًا لخطتي، انتظرت حتى حلّ المساء وعم الظلام، ثم انطلقت إلى هذه الخزانة التي اكتشفت وجودها منذ قليل بما تحويه من بعض المواد الكيماوية والألعاب النارية وبدأت صُنع قنبلة دخان ملونة من مزيج السكر ونترات البوتاسيوم مع كربونات الصوديوم المتمثلة في البيكنج بودر وصبغة ملونة، ثم قُمت بتقليبها معًا على نار هادئة وتعبئتها في أسطوانة مع وضع فتيل، ثم تركت الخليط ساعة حتى جمد لأبدأ ألعابي النارية، فتبدو بلورتي كالقمر الساطع بالسماء، فألْفِت أنظار هم جميعًا فيبحثون عن مصدر اللون الساطع بوسط الظلام ويجدونني هنا.

وبعد مرور بعض الوقت، كنت لا أتوقف عن السُعال بسبب استنشاق الأدخنة. ولكن -بلا فائدة- لم يلتفت أحد إليّ ولم تُرسَل طائرة ما لإنقاذي.

أعدت محاولة القنابل الملونة في ضوء النهار، وتَلَتْها محاولات لكسر الزجاج ثم تدمير الغرفة مع الصراخ المتواصل. إنني على وشك فقدان عقلي. وبدأت البكاء. لم يعد أمر جمال البلورة يهمني؛ فأنا محبوسة هُنا وحياتي متوقفة والناس مستمرون في حيواتهم. كُل ما أُريده هو الخروج والعودة لمنزلي وحياتي.

بمرور الوقت، بدأ الحزن والاشتياق يسيطران عليّ عندما عثرت على صوري القديمة مع أسرتي. كانت علاقتي بأخي أقوى قبل سنوات من الآن. كان لديّ أصدقاء مختلفون قطعت علاقتي بهم جميعًا عند دخولي الكلية دون سابق إنذار؛ فانشغالي بحياتي الدراسية الجديدة واجتهادي في تحسين وضعي قد أنساني أمرهم. كانت مسألة أولويات بالنسبة لي.

ياه، كم كانوا يحبونني لكن ليس هناك كحُب أمي لي؛ فهي تُحبني من قبل أن أكون مميزة ولم يتغيّر حبها لي مع الزمن. أنا حتى لا أتذكر آخر مرة عبرت عن حبي لها، فقد ظننت خطأً وضلالًا في لحظة ما أنها مُجبرة على معاملتي هكذا.

أغلقت ألبوم الصور، وجلست في ركن على أرضية البلورة الفخمة وأنا أتحدث مع نفسي قائلة: لم أعد سعيدة بهذا الوضع، أُريد العودة، أُريد أن يراني الناس وأراهم. أعود لمن أحبوني بصدق ومن يعنون لي كثيرًا. لا أُريد أن أعيش في عالم خيالي. أُريد أن أعود إلى أرض الواقع. فقط أُريد العودة.

بعد هذه الكلمات، بدأت البلورة الاهتزاز بعنف. أنظر من زجاج البلورة، فأجد الناس ينظرون إليها في انتباه وهي على وشك السقوط عقب الانفجار ثم

بدأت بعض أجزاء البلورة تتناثر، وأخذت تسقط تدريجيًّا ثم بشدة. شعرت أن روحي على وشك الخروج من جسدي. أتحرك لأعلى ولأسفل وجسدي يرتطم بالجوانب المتبقية من البلورة، فتُصيبه بالخدوش. أُغلق جفوني بشدة في انتظار لحظة الارتطام بالأرض، ثم يسكن كل شيء حتى عقلي. ربما أدركت ما فاتني من معاني الحياة، لكن قبل فقداني حياتي بقليل، أشعر وكأن روحي ستُنزع من جسدي الآن.

أستيقظ.

أنظر إلى السقف فأجده معتمًا لا تنفذ منه أشعة شمس. أُدقق النظر لأجد سقف غرفتي. أنهض بجسدي وأنا أنظر حولي. إنها غرفتي. لقد عُدت. أنظر في المرآة، أتحسس وجهي. أنا حية. أقفز مسرعة نحو باب الغرفة لأفتحه. أنطلق نحو أُمي في المطبخ أحضنها بشدة وأُقبِّل رأسها. يمر أخي بجانبي غير مبالٍ بي فأجذبه نحوي وأضمه أيضًا ثم أعتذر له عن كلماتي القاسية.

المسكين. لابد أنه كان يعاني الإحباط بسببي لمدة طويلة. لم أنتبه من قبل لوجهه حيث أصبح باهتًا تعيسًا. أنظر إلى الحياة نظرة مختلفة وأفكر في تعويض خساراتي كعائدة من الموت أو هاربة من الجحيم. أخطط لمقابلة أصدقائي القُدامى، فأُحضر كُتيب أرقامهم الملقى في صندوق "الأشياء المُهملة" ثم أجلس على الأريكة وأُفكر في ذلك الحلم. إنه ليس مجرد حلم، إنها حياتي؛ فطوال السنوات الأخيرة وأنا أعيش في عالمي الخاص حيث أرى الناس صغارًا، وأراني

في مكان لا يستطيعون الوصول إليه، فأنا أعلى منهم دائمًا. غروري أحاط بي وسَيْطَرَ عليّ وجعلني أعيش في ذلك المستوى المرتفع الذي لا ينتبه أحد إليه سواي. أضع حياتي في مقارنة غير عادلة مع حيوات الآخرين، أضعهم في مسابقة وهمية أنا رابحها الوحيد والأبدي، مستوى خيالي. هُم يمضون في حياتهم وأنا أُفكر في لفت أنظارهم وأُفكر كيف أُشعرهم بأني أفضل منهم وكيف أستخدم كل نعمة وهبني الله إياها كسلاح أطعن به من حولي بل وأقرب الناس إليّ. كنت أُزين ذلك الغرور بالمصطلحات الأخلاقية كالاجتهاد والتَّميُّز لأرتقي إلى قمة السعادة والنجاح والفخر. غروري أوصلني حقًّا إلى القمة، ولكنها "قمة اللاشيء" سأنزل من تلك القمة الوهمية الآن فلربما أكتسب على أرض الواقع ما افتقدت من نزاهة أخلاقية وتقدير الآخر، ثم أَشُقُّ طريقي نحو قمة أخرى ذات قيمة أدوس فيها على رغباتي المدمرة وشياطين أفكاري لا على قلوب من حولي.

أخي يتقدم نحوي في خطوات مترددة، ثم يقول لي بنبرة خافتة: أيمكنك مساعدتي؟

جسر الذكريات

كيف يمكن لمكان واحد أن يحمل لحظات وذكريات مختلفة لكل شخص؟! فيحمل السعادة والحزن، الضحك والبكاء، الأمل واليأس في اللحظة نفسها. كيف يمكن لمكان أن تنتمى إليه وينتمى إليك ثم لم يعد بينكما صلة؟ إن الأماكن تحمل معجزات وذكريات، أحاديث الألسنة والقلوب والعيون، وتعج بالأمنيات واللحظات الأولى والأخيرة أيضًا.

- كان يومًا حافلًا في إحدى بلدات أستراليا؛ حيث حفل تخرج دفعة إحدى المدارس الثانوية العليا. اجتمع الأصدقاء والأهالى والمعلمون والطلبة؛ لإتمام الحدث الذي يختصر عديدًا من اللحظات ويجمع كثيرًا من المشاعر الجميلة والمختلطة، يسبقه أعوام من المشاركة في طريق واحد يسلكه جميع الناس ويليه عديد من نقاط التحول ومفترقات الطرق لكل شخص.

كانت (إيفا) واقفة هناك على جسر بلدتها هائمة على وجهها شاردة الذهن -لا أحد يعرف ما يدور بعقلها وبخاطرها- عندما مرت سيارة سوداء متجهة نحو الحفل المقام بمنزل (ريك) وهو حفل كبير سيحضره جميع الناس، وسيكون أكبر من حفل المدرسة الذي انتهى منذ قليل. كان في السيارة (ستيف) -وهو زميل (إيفا)- ووالده ووالدته وأخته الصغرى (نيللي). تعجب (ستيف) من وقوف (إيفا) على الجسر وحدها وخاصةً أن الطريق المختصر الشائع نحو منزل

(ريك) لا يمر بالجسر، لكن السبب الرئيس وراء مرورهم به أن والديّه لا يفوتان أية فرصة تجمعهما بالجسر حيث يشرعان سرد ذكرياتهما معًا في ذاك المكان، ذكريات عديدة منها الرومانسي حيث كان أول لقاء بينهما وأيضًا الغريب حيث عثرت (نيللي) على كلبها المفقود (بلوتو) هناك. طلب (ستيف) من والده التوقف لحظة؛ لأنه يعرف تلك الفتاة الواقفة على الجسر والتي توجه نظرها نحو النهر. لربما ضلت الطريق فيصطحبوها معهم لحفل (ريك). وقفت السيارة وبدأت الأم عباراتها المفعمة بالذكريات. أخرَج (ستيف) رأسه من نافذة السيارة، ثم صاح قائلًا: (ألن تذهبي للحفل في منزل (ريك)؟) لم يتلق إجابة، فترجّل من السيارة وتقدم بخُطَى بطيئة نحو الفتاة ثم قال مازحًا: (لا تقولي إنك تفكرين فى القفز من هنا يا (إيفا)) بالطبع كان مازحًا فمن يتحدث مع (إيفا) الفتاة المرحة دون أن يلقي بعض النكات؟! لكنه لم يتوقع -عند استدارتها له- أن عينيها تحويان شلالات جارية من الدموع، لم تلحق أن تخفيها فقد تفاجأت بوجوده خلفها. ولأول مرة يكتشف أحدهم هذا الجانب من (إيفا)، الجانب الذي تخفيه على جسر الذكريات.

لحظات مرت وعيناهما ملتقيتان في ثبات وكأنهما تماثيل بدون حركة أو كلام. كانت مندهشة من وجوده أما هو فكان متعجبًا من بكائها. لم يقطع الصمت سوى نداء السيدة (تروي): "هيا يا فتاة سنقلّك للحفل". توارت (إيفا) خلف (ستيف) حتى تمسح دموعها ثم رسمت الابتسامة على وجهها

قائلة: مرحبًا سيد وسيدة (تروي)، كيف حالكما؟ وكيف حالك أيتها الأميرة الصغيرة؟

رد السيد تروي: نحن بخير عزيزتي، لكن هلَّا أسرعتي حتى لا نتأخر عن الحفل؟

ردت (إيفا) قائلة: متأسفة كثيرًا، لكنني لا أنوي حضور حفل (ريك)، سيأتي أصدقائي لاصطحابي للمنزل، شكرًا جزيلًا لكم. أتمنى لكم وقتًا ممتعًا.

استأذنها (ستيف) لحظة، وتقدم نحو والديه وطلب منهما أن يذهبا بدونه، وسيلحق بهما حين يأتي أصدقاء (إيفا) لاصطحابها. لم يجد الوالدان مشكلة في ذلك، وودّعا ابنهما الشاب وزميلته وأكملا الطريق نحو وجهتهما. أما (ستيف) فقد كانت تلك هي فرصته الوحيدة للتقرب من (إيفا) بشكل مختلف بعيدًا عن الصورة التقليدية لزملاء يمزحون معًا كي يمر وقت الدراسة بلطف، بالإضافة إلى أنه كان يشعر بغرابة مقلقة في تصرف (إيفا) وخشى أن يحدث ما لا يتوقعه أحد وتؤذي نفسها. عاد أدراجه نحو الفتاة وهي تنظر بتعجب من رحيل والديه وعدم رحيله معهما.

إيفا: لماذا لم ترحل معهما؟

ستيف: سأخبرك إذا أخبرتيني لماذا كذبتِ بشأن أصدقائك؟ وما سبب تلك الدموع المنهمرة؟

ارتبكت (إيفا) وحاولت أن تخفي ذلك بابتسامتها المعهودة وقالت: أكذب؟! لا أفهم ما تقصده بالضبط.

ستيف: أعلم أن أصدقاءك لن يأتوا، فقد كانوا يبحثون عنك ويحاولون الاتصال بك في حفل المدرسة لكن هاتفك كان مغلقًا.

اختفت الابتسامة فجأة من وجه الفتاة ثم قالت: ماذا تريد يا (ستيف)؟

ستيف: أريد الحقيقة، أعلم أنني لست صديقًا لكِ، وأنتِ لست مجبرة على التحدث معي، لكنني سأظل هنا ولن أتركك وحدك.

بدت غير مستعدة للكلام، حولت نظرها للسماء وخَيَّمَ الصمت على الأجواء وكان (ستيف) واقفًا بجانبها لا يُجبرها على التحدث، لكنه أيضًا يأبى أن يتركها وحدها. شيء ما بداخله رفض فكرة الرحيل، ربما الشعور بالقلق نحو ما قد تؤول إليه الأمور وربما لأن بداخله جزءًا يهتم بها حق الاهتمام. وبعد بضع دقائق، تحول نظرها للنهر أسفل الجسر، ثم قالت: هذا الجسر يمثل لي كثيرًا.

ستيف: كثيرًا من ماذا؟

إيفا: من الألم وعذاب الذكريات.

ثم نظرت إليه دون أن تعني ما تقوله: أنا أكرهك حقًّا.

كان (ستيف) يعلم جيدًا أمر الحادث المروع الذي أودى بحياة والديها منذ خمس سنوات، لكنه أراد أن يتركها تتحدث بحرية وأن يستمع إليها. في الواقع، لقد تمنى هذه اللحظة منذ وقت طويل، لكن كان دائمًا يضع عائقًا يحول دونها؛

لأنه كان يعرف مدى ارتباط (إيفا) بأصدقائها ولم يكن يظن أن له فرصة جادة مع أكثر فتاة مرحة واجتماعية في المدرسة. كان يضع عوائق نفسية تجعله غير مهتم لأمرها كإقناع نفسه بأنها شخصية سطحية كرتونية لا تمت للواقع والجدية بصِلة، وقد حان الوقت الآن ليُقابل الجانب الآخر التي تتعمد دائمًا إخفاءه عن جميع العيون.

من يعرف (إيفا)، يعلم إيفاًا أنها قوية من الداخل وشديدة السيطرة على نفسها ولا يجبرها شيء أو شخص على التحدث، تستطيع الهروب من أي نقاش لا تريده بمرونة ولطف، لكن جزءًا ما بداخلها أراد التحدث معه. ربما لأنه خارج دائرة المقربين، فبعضهم يجد الراحة في التحدث مع الغرباء، وربما لأنه فقط (ستيف) الشاب العاقل المتميز علميًّا وثقافيًّا ورياضيًّا وكأنه عقد العزم على إثبات ذاته في كل شيء بالحياة. كان شيء ما يُشعرها بالارتياح لفكرة التحدث عن حادث والديها معه، فقد سبق وكشف وجهها الباكى، فليست مضطرة الآن إلى إخفاء دموعها.

إيفا: كنا في طريقنا لقضاء العطلة في منزل جدتي، في السيارة، كان أبي يتحدث عن رحيل والدته منذ عشرين عامًا، وكيف تعامل مع لحظات الضعف والانكسار واليأس حتى استطاع أن ينهض ليكمل حياته، كيف كان يشغل نفسه في أمور عديدة كمصدر للإلهاء، كيف كان يبتسم ويمزح أمام جميع الناس كي يظل الشخص الثائر داخله مُقيدًا. لم أكن أعلم حينها أنه يرشدني إلى الطريقة

التي يجب أن أتعامل بها مع مأساة رحيلها. حتى هو لم يكن يعلم أن تلك الكلمات هي آخر شيء سيخبرني به.

ستيف: ماذا حدث؟

(إيفا) كانت تحاول أن ترسم ابتسامتها وسط شلالات الدموع، وكأن تلك الابتسامة هي خط دفاعها الأول والأخير في مواجهة مصابها، ثم قالت: الموت هو ما حدث، الفراق وما يعقبه من اشتياق قاتل وذكريات مؤلمة ووحدة مخيفة وحيرة وشوق.

ستيف: أنا آسف. كان من الأفضل ألا أضطرك للحديث.

إيفا -وهي تمسح دموعها المنهمرة-: ستيف.. أنا أُجيد إخفاء حزني. لقد اعتاد قلبي البكاء باستمرار وأصبح الأمر مؤلمًا بشدة. أحتاج في كثير من الأحيان أن أُطلق سراح دموعي. كثرة البكاء في أثناء نظري إلى المرآة جعلتني أخشى انعكاسي أحيانًا بما يحمله من انعكاس لمأساتي وللفوضى التي أُلحقَت بحياتي. أريد أن أتحدث عما حدث لي، أن أصرخ، لكن بدلًا من ذلك أمزح وأضحك أمام جميع الناس كي يقل الألم أو فقط كي أتحمله.

كان (ستيف) يفكر في التحدث عن الأمل، وأن والديها ربما في مكان أفضل الآن، وأنها قوانين الطبيعة وسُنَّة الكون، ولكنه تذكر وقتها كلام جدته له (إنك يا (ستيف) لفتى شديد الرُّقِي والحكمة، لكن عليك أحيانًا أن تنصت جيدًا، فهناك لحظات يحتاج فيها الإنسان من يسمعه أكثر ممن يلقنه دروسًا وعِظات).

فقال –وقد بدا الأسى على وجهه–: أسمعك.

ابتسمت (إيفا) ثم أكملت: لقد كنت أرتدي فستاني الأحمر المفضل لوالدتي، وكنا في طريقنا لقضاء يوم مميز حيث حفل زواج عمتي (جينا) المُقام في منزل جدتي، وكانت أمي متحمسة للخروج مبكرًا وكأنها تتعجل الرحيل الأبدي، لقد أرادت أن نكون جميعًا إلى جانب (جينا). تأنَّقت والدتي بفستانها الذهبي ووالدي ببدلته السوداء الرائعة. ربما كانا يتزيَّنان من أجل الجنة. طفق والدي يتحدث عن جدتي وعن حياته بعدها وكيف اعتنى بأخته الصغرى (جينا)، ثم استدارت والدتي نحوي وقد كنت أجلس في المقعد الخلفي ونظرَت إليّ طويلًا وكان والدي يتابعني في المرآة معظم الوقت؛ فأنا الفتاة المدللة وقد كنت كل ما يملكانه من أبناء، ثم فجأة –ونحن فوق هذا الجسر– تمر سيارة مسرعة تجاهنا ويحاول أبي تفاديها فتقفز سيارتنا من الجسر ثم إلى النهر، ويصبح الهواء هو الماء الذي يحيط بنا من كل جانب ويسلب منا القدرة على التنفس. استطاع فريق الإنقاذ إخراجي من نافذة السيارة وإنقاذ حياتي. لكنهم لم يستطيعوا إنقاذ والديّ.

لم يكن (ستيف) يعلم ما ينبغي قوله، فقد كان متعجبًا من أمر هذا الجسر بل من أمر الحياة. فكيف يمكن للمكان نفسه أن يكون مصدرًا للذكريات السعيدة لأسرته ومصدرًا للألم والأسى لشخص آخر ومجرد وسيلة عبور للكثيرين. لقد كان عاجزًا عن الكلام وربما كان يخشى أن يقول ما ليس مناسبًا فيفسد اللحظة.

كان كل ما يفعله هو أن يمد (إيفا) بالمناديل كي تجفف دموعها، ثم قال: أنتِ قوية حقًّا يا (إيفا). أن تحملي تلك التفاصيل المؤلمة وتقرري أن تتركي سريرك في الصباح وتتابعي حياتك، فهذه قوة.

هدأت (إيفا) قليلًا وقالت: أين تحسبهما الآن؟

ستيف: ربما في السماء وربما حولك وربما في الجنة. أي سيناريو يُطمئنك أكثر؟

إيفا: لا أعلم، ربما ما أخشاه هو أنهما في قلبي وعقلي فقط.

ستيف: أعلم أن سيناريوهات ما بعد الموت مختلفة وغير مؤكدة، لكن المؤكد يا (إيفا) أنهما لا يختنقان تحت الماء ولا يتألمان من الحادث، ذاكرتك حبستهما في تلك اللحظات الأخيرة المؤلمة، لكنهما ليسا هناك الآن، فسواء افترضتِ أنهما في السماء أو الجنة أو حولنا أو في اللامكان، فهما الآن بدون ألم. عليكِ أن تطمئنّي وتحرريهما من تلك اللحظة في ذاكرتك. لن يضر إن تخيلتِ أنهما معنا الآن.

نظرت إليه في حيرة لوهلة، فقد كانت تفكر في كلامه مليًّا حيث يبدو مختلفًا عن أي كلام آخر سمعته من قبل، وبدأت تتخذ فكرة (تحرير ذكراهم من الحادث)حالاته، وذهب خيالها بعيدًا لرؤية والديها في أبهى حلة في مكان في غاية الجمال يضحكان ويراقبانها في كل حالاتها، ثم قالت: "إنهما هناك الآن في مكان أفضل" ابتسم (ستيف).

نظرت له (إيفا) وقالت: شكرًا لك وآسفة لعدم حضورك الحفل بسببي.

ستيف: لا عليكِ، أنتِ أيضًا لم تذهبي للحفل.

إيفا: ما أكثر شيء كنت تنتظره بحماسة في حفل (ريك)؟

قال بعد ابتسامة غامضة: رقصة الحفل الكلاسيكية.

إيفا وقد شعرت بالذنب: آسفة لتفويت ذلك عليك.

قال وهو يمد يده لها: ربما لم يفت الأوان بعد، فقد انتظرت رقصة الحفل لأطلب منك أن تكوني شريكتي فيها.

صدر صوت موسيقي هادئة من هاتف (ستيف) فابتسم قائلًا: أيمكنك أن تحققي لي أمنيتي؟

ضحكت (إيفا) وضاقت عيناها الواسعتان وتوردت وجنتاها ثم قالت: هنا؟ على هذا الجسر؟

قال: فكري فيها كذكرى مختلفة لنا نصنعها هنا معًا.

قالت وهي تمد يدها: وهل لك ذكريات أخرى هنا؟

قال وقد اقترب منها وبدأت رقصتهما: إنها لعائلتي، وهي قصة طويلة حقًّا سأحكيها لكِ يومًا ما.

مسألة وقت

الوقت يعطيك ساعاته وأيامه ويُكثر العطاء؛ لا لتشعر أنك تمتلكه بل لتشعر بقيمة كل لحظة فيه، ولا تسكن دون أن تخطو خطوة نحو ما تريد وأيضًا لا تسكن دون إرادة.

ها هو الوقت وها أنت تَدَّعِي أنه سرقك وخانك وهو لم يعدك بشيء. أنت فقط من تملّكته دون إذنه وعاملته مُعاملة السيد لخادمه.

الوقت يعطيك من أجزائه فُرَصًا لتستغلها، مهما طالت مدته فهو وقت مستعار.

صباح يوم روتيني جديد.

أستيقظ لأنهض من فراشي في شقتي المنعزلة عن العالم، ولا عجب من هذا الانعزال، فقد بدأ عقلي به عندما قررت الابتعاد عن التفكير في الماضي تاركًا ورائي زوجةً أنانية لا يشغل اهتمامها سوى نفسها وطفلًا يلومني على الرحيل والمُضِيّ قُدُمًا في حياتي.

إنه صباح جديد ليوم لا أهتم بتاريخه يومًا وشهرًا. يوم يُشبه سابقه ولاحقه.

لا أعاني تشابه أيامي، لكن كل يوم يمضي أشتاق ل(سيف) كثيرًا. إنه ابني ذو السنوات العشرة، لم أره منذ عام. أتابع أخباره على حساب الفيس بوك الخاص به وبوالدته وأنظر إلى صورنا معًا على الحاسوب النقال. وعندما أُشْبِع

جزءًا من العاطفة، أُغلِق الصور وأمضي إلى عملي حتى أعود ليلًا في قمة الإرهاق، فأعاود تفحص أخباره حتى أغفو إلى صباح يوم جديد كالقديم.

في طريقي اليوم عائدًا إلي المنزل، نظرت طويلًا إلى الحديقة المستنيرة في فيلا د.(أمجد) حيث يقيم حلقة دعم كل خميس يجتمع فيها الآباء الذين عانوا والأمهات اللاتي عانيَن من الزواج حتى انتهى الأمر بالانفصال. فمنهم من اخترقه الحزن وكُسِرَ فؤاده، ومنهم من كاد الزواج يقوده للجنون، ومنهم مَن أدرك السعادة بعد أن أصبح أرملًا، ومنهم ومنهم... حتى د.(أمجد) عانى كثيرًا بعد إجراءات الطلاق التي أبعدته كرهًا عن زوجته وابنته اللتين يحبهما كثيرًا.

إنهم يجتمعون ساخطين على شركائهم أو أنفسهم معربين عن رغبتهم في بدء تجربة جديدة مع شريك جديد أو المُضِيّ في الحياة العملية أو العلمية دون الارتباط بأحد.

وها أنا ذا أنظر إلى تلك الجلسات التي أسماها (ماذا سرق الزواج منك؟!) من مسافة وأبتسم متعجبًا من أحوال البشر، ثم أُكمل طريقي نحو المنزل.

إنه اليوم بتاريخ ما بموقع ما من شريط حياتي، أجلس على مكتبي بالشركة حيث أعمل، مدام نسرين تنظر إليّ كثيرًا وكأنها تريد أن تُخبرني شيئًا وتنتظر الفرصة المناسبة. تنهض من مكتبها حين ألحظ طول مدة نظرها إليّ. تقترب سائرة نحوي ثم تنحني هامسة حتى لا يلحظ أحد أنها تتحدث معي في أمر لا يخص العمل؛ فقد كثر القيل والقال عنها منذ أن تركت زوجها يُعاني بسبب

الديون التي فرضتها عليه كثرة متطلباتها التي لا تلائم مستوى معيشتهما ودخلهما. وهذا ما يردده الناس عنها مرارًا و تكرارًا. تقترب مني ثم تقول: لم أُقابلك في حلقات د.أمجد.

-عذرًا سيدتي، لم أسمع ما قلتيه.

*في الواقع قد سمعت جيدًا، لكني أردت أن تعيد كلامها للتأني لمعرفة مقصدها ونواياها.

كررت جملتها مُضيفة: لقد سمعت أنك عانيت بسبب تجربة الزواج لكني أتعجب من عدم مقابلتك هناك تُشارك قصتك.

نظرت إلى حاسوبي وأنا أقول: سيدة نسرين، العمل يشغل وقتي ولا يعطيني فرصة للتفكير في شيء سواه.

اعتدلت في وقفتها وهي تتظاهر بترتيب بعض الأوراق بمكتبي، ثم قالت: أعلم كيف تكون تجارب الزواج الفاشلة قاسية على الإنسان، أود أن تعيد النظر فيما قلته لك، فربما تجد من يُهون عليك الليالي القاسية.

قالتها وابتعدت، وأنا أتحاشى النظر إلى وجهها؛ حتى لا أتأكد من هذا الإصرار المنبعث من نبرة صوتها ومن نظراتها الحادة. نعم فسأكون ضحية مناسبة في ثوب زوج جديد.

في صباح اليوم التالي، وبينما أُحاول إنجاز أعمالي الكثيرة الخالدة، اقتربت السيدة نسرين من مكتبي وأسقطت قهوتها على زجاج المكتب عمدًا، ثم أخذت تعتذر قائلة: آسفة يا باشمهندس (نصر) لا أعلم كيف حدث هذا؟! لا تقلق سأُحضر قطعة قماش لأنظف ال...

قاطعتها بحدة قائلًا: لا تهتمي يا نسرين هانم، فقط اذهبي لعملك.

نظرت إليّ بغضب وبدأت تتحدث وهي تجز على أسنانها قائلة: أتعلم؟! د.(أمجد) قد عاد لزوجته ولن يكون هناك حلقات دعم نفسي ثانية، حاولت تقديم يد المساعدة لك كثيرًا؛ نظرًا لحالتك البائسة، لكنني أيأس سريعًا، سأذهب وأجلس على مكتبي ولن أرفع نظري تجاهك ثانية؛ فأنت مَن يحتاج المساعدة ليس أنا.

انتفضت من مجلسي قائلًا في غضب بصوت مرتفع ولافت لأسماع المحيطين: لِم لا تهتمين بشئونك فقط يا مدام نسرين؟!

بهت وجهها وأخذت تسترق النظر؛ لترى من انتبه لصوتي في المكان، فقد توقعت الأفعى أنها ستلدغني دون أن أصرخ ألمًا. وعندما أدركت قبح موقفها، تقهقرت مبتعدة عني وهي تتمتم : لن أتعجب إن لم يحضر ابنك جنازتك.

لم أعلم أن جملة خبيثة كهذه ستصفع قلبي ألمًا فتهمد روحي دون مقاومة. لم أهتم بافتقارها للأدب في الرد؛ فقد كانت في موقف لا تُحسد عليه قدر اهتمامي

بأنها ضغطت وبقوة على جرحي المفتوح. أشتاق إلى ابني حقًّا وأخشى أن يأتي يومٌ ويحدث ما ذكرَته.

في طريقي إلى المنزل، كنت أُفكر في شيء واحد وهو الخوف.. الخوف مِن أن يصدني (سيف) إذا طلبت رؤيته أو ذهبت لأخذه بعد يوم دراسي، وإذ فجأة، ينجذب نظري لازدحام حديقة فيلا د.(أمجد) على غير العادة. ظننته ألغى الحلقات كما قالت تلك الحمقاء. اقتربت من اللافتة المُعلقة في المدخل، ففوجئت بتغيير اسم الحلقة إلى (كيف خذلت الوقت ؟!)

كانت ابنته ذات السادسة عشر عامًا تُعلق البالونات في الحديقة، والناس يتوافدون. لم أشعر بقدميّ وهما تتحركان نحو الحدث حتى دخلت الحديقة ووجدت د.(أمجد) مبتهجًا ويشير للزائرين بالجلوس، وزوجته يبدو الهدوء في ملامحها تجلس على كرسي بجانبه متوسطيّ الحلقة.

نظر إليّ د.(أمجد) في تعجب وكأنه كان متوقعًا قدومي في جميع الأيام الماضية وليس اليوم.

جلست على كرسي، وهدءوا جميعًا. كنا قرابة عشرين شخصًا في الحلقة، ثم بدأ د.أمجد التحدث: (تجمُّعنا اليوم مختلف عن أي تجمع معتاد، لقد قررت منذ يومين أن أتوقف عن مراقبة رماد حياتي بعد مغادرة زوجتي وابنتي وتركهما إيّاي وحيدًا بالمنزل. قررت أن أنهض بحرارة لأستعيدهما، لم يكن الموضوع يسيرًا، فليس هناك أسهل من البكاء على الأطلال فهو هين ولكنه يشبه اندلاع النيران

في منزلك فتُفضل الاحتراق ساكنًا على أن تقفز من النافذة للنجاة. ضعف روحك واستسلامها للهلاك بل وتفضيله على النجاة بكسور وجروح غائرة. هذه فلسفة الضعفاء حين يُدمِّر أحدٌ حياتهم، فما بالكم بمَنْ دمرها بنفسه؟!!)

التقط أنفاسه ناظرًا إلى زوجته، ثم أكمل (نعم، خذلت الوقت عندما تأخرت عن الاعتراف بخَطَئِي والرجاء من أجل السماح والمغفرة من الله ثم من زوجتي وابنتي، لكني سعيد جدًّا الآن؛ لأنني لم أتمادَ في الخذلان، وانتهزت كافة الفرص لأُعيد الأمور إلى نصابها. الوقت لا يخذلنا فهو يعطينا ساعاته وأيامه ويُكثر العطاء؛ لا لنشعر أننا نمتلكه بل لنشعر بقيمة كل لحظة فيه، ولا نسكن دون أن نخطو خطوة نحو ما نريد وأيضًا لا نسكن دون إرادة.

ها هو الوقت، وها نحن نَدَّعِي أنه سرقنا وخاننا وهو لم يعدنا بشيء.، نحن فقط تملّكناه دون إذنه وعاملناه مُعاملة السيد لخادمه.

الوقت يهبنا من أجزائه فُرَصًا لنستغلها، فهل فعلنا؟)

أشار إلى النقطة المركزية التي تتجمع المقاعد حولها، وقال: (نحن هنا؛ لا لنتحدث عن الخذلان فقط، بل ستكون نقطة البداية للتحرك وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. إذَن، من يريد البدء؟)

منذ تلك اللحظة، ازدحم المكان بالقصص الحزينة، فمنهم من تخاذل بإهمال ما يحب أو مَن يحب، ومنهن مَن خذلت نفسها بعدم الإيمان بها حتى أصبحت امرأة عاجزة لا تستطيع التوكُّأ على جسدها فأفناها وفَنِيَ قبل ميعاده.

تقدمت امرأة دامعة العينين تحكي قصة خوفها من الأمومة الذي ظل ملازمها لسنوات حتى حرمت نفسها وزوجها من الحصول على طفل، وعندما تُوُفِّي زوجها منذ عامين، أدركت كم هي وحيدة، وأنها حبست روحها في عالم من الخوف حتى فات قطار العُمر وأصبحت خمسينية أرملة دون أولاد.

تقدمت نحوها فتاة عشرينية لمواساتها، فقال د.أمجد: إنه لَإحساس جميل منك يا فتاة للحزن من أجلها، لكننا هنا لتغيير الواقع وصنع نقطة التحول، وإذا استمرت سلسلة المواساة، فستصبح مسكنًا لمرض مزمن.

تَلَا هذه المرأة شاب عشريني، وبدأ يحكي قصة فتاة أحلامه التي لا يتخيل أنه من الممكن ألا توجد في حياته المستقبلية لأنه لا يملك الشجاعة ليخبرها بما يشعر به.

ثم هذا الرجل الستيني الذي حدث خلافٌ بينه وبين والده فاعتزله ولم يتواصل معه خمس سنوات، وكان يؤجل الصلح ويستثقل الاعتذار حتي اتصلت به أخته لتخبره أن والده قد رحل عقب مأساة مرضية زادها الحزن سوءًا.

عمّ الصمت أرجاء المكان واغرورقت بعض العيون بالدموع وانتحبت بعض السيدات، وتوالت القصص لكن عقلي قد غاب عن جسدي وذهب إلى عالم آخر، حيث تخيّلت ابني شابًّا يافعًا ثم رجلًا راشدًا ثم زوجًا ثم أبًا يحضن أطفاله ويُطمئنهم أنه لن يتركهم كما فعل والده معه، ثم تخيّلتني رجلًا كهلًا في

مكتب تقترب مني سيدة نسرين قائلة: عجبًا أن ابنك أبٌ جيد لا يشبهك فأُصاب بنوبة قلبية ويعجز جسدي عن الحركة ثم عن المقاومة حتى أُفارق الحياة وحيدًا تَلْعَنُني أحلام طفل صغير أراد أن يكون له أب حنون مسئول ليس مثلي.

أعود إلى الواقع وقد بهت وجهي وكأني ذهبت في زيارة سريعة لمستقبل أسود يلائم قلب صاحبه. أنظر حولي فأجد فتاة تتكلم في مركز الحلقة لا أركز في كلماتها فأنا أفكر في شيء أهم. أنظر إلي باب الحديقة، ثم أنتفض مسرعًا نحوه وأنا أفكر في شيء واحد وهو رؤية ابني.

طوال الطريق القصير للفيلا- التي تقطن بها زوجتي السابقة وابني- أستعيد ذكرياتي مع (سيف) وأستعيد ذلك اليوم الذي قررت تسميته بهذا الاسم، واللحظات حيث كانت أصابعي تستقر علي بشرته الملساء، ثم لحظات أخرى كثيرة: كأول كلمة ينطقها وأول حرف يكتبه وأول شهادة مدرسية يحصل عليها، أول ضحكة، أول دمعة، ثم بدأت أفكر في كم البدايات التي فاتتني وما سيفوتني في مراحل عمره إذا بقيت ملتزمًا بالركن البعيد الهادئ. لم أكن متأكدًا من رد فعل والدته وأيضًا رد فعله، فهو لا يعلم كم أحترق لرؤيته ومتابعة أخباره كل يوم. لكنني قررت الاستماتة من أجل أن يبقى معي أبد حياتي وأن يُبقيني في ذاكرته أبد حياته.

خطواتي السريعة.. الابتسامة التي تقتحم وجهي.. السعادة التي تغزو قلبي، لا يمكن الاستهانة بها، ولأول مرة أخشى أن يخذلني وقتي قبل أن أصل

على الرغم من أن المسافة عشرون دقيقة فقط سيرًا على الأقدام. كنت أخشى حدوث أي شيء يمنعني من الوصول.

مررت بأحد محلات الألعاب فتوقفت قليلًا، ثم نظرت إلى يدي الخالية، وتساءلت لِمَ لا أحضر له جهاز (الإكس بوكس) الذي أعلن رغبته الشديدة في الحصول عليه في إحدى منشوراته على الفيس بوك؟!

تأتي اللحظة الحاسمة، صوت دقات قلبي يعلو صوت طرق يدي على الباب، تفتح (سالي) الباب ويبدو على قسماتها مزيج من الدهشة والغضب والاستنكار الذي تلاه محاولة لإغلاق الباب في وجهي. حاولت ردعها مبررًا أني أتيت فقط لأرى (سيف) وأعطيه هديته وأرحل سريعًا، لكن لا محالة فهي عنيدة كعادتها رفضت دخولي وهددت بإحضار الشرطة.

أغلقت الباب وتركتني غارقًا في الندم، ظللت ملتصقًا بالباب لحظات كافية لسماع بكائها وحديثها مع أختها في الهاتف. لم أستطع تفسير كثير من كلماتها ولم أنوِ التنصت، فهممت بالابتعاد عن الباب وكانت آخر كلمات تلتقطها أذني هي "لم نكن أنا و(نصر) الزوجين المثاليين، لكنني تمنيت لسيف أبًا أفضل"

نظرت إلى شرفة الدور الأول حيث توجد غرفة سيف، وقررت تسلق الشجرة المجاورة كبديل لصعود درجات سلم المنزل الذي حُرِمْت من دخوله، فأحيانًا يكون سَلْكُ الطريق الوعر أفضل من الاستسلام.

بعد عدة دقائق كنت أراقب (سيفًا) وهو مستلقٍ على سريره وينظر إلى هاتفه المحمول. وقتها، لم أطق الانتظار أكثر؛ فقد سئمت من الحواجز التي تبعدني عن ابني. طرقات خفيفة على الزجاج جعلته ينتبه. أخذ يُمعن النظر ثم فتح وألقى نفسه في حضني هاتفًا (بابا).

*لقد اشتقت إليك كثيرًا.

سيف: وأنا أيضًا لكنك لا تسأل أبدًا، أنا غاضبٌ حقًّا منك.

سرحت قليلًا في رقة قلبه حتى إنه لا يجيد التعبير عن الغضب بسبب وجهه الباسم المتسامح، إنه يشبه في هذه الصفة والدته قديمًا، ففي الماضي البعيد، كانت لا تستطيع التعبير عن الغضب أو الاستياء من أحدهم حتى ولو طعنها بسكين، لابد وأنني فعلت أكثر من ذلك لجعلها شخصية تغضب وتثور وتضيق ذرعًا، بل وتصر على الانفصال، لكنها كانت سيئة الظن أيضًا وتدفعني للجنون. ربما كلانا كان مخطئًا، لكن ما ذنب (سيف)؟

قدمت له جهاز (الإكس بوكس) قائلًا: دعنا مما حدث في الماضي، ولنفتح صفحة جديدة. تفاجأ ولم يستطع التحكم في مشاعر السعادة التي زيَّنت ملامحه، ثم قال (كيف عرفت؟) وهو يسرع بفتح العلبة والشروع في تركيب أجزائها، فقلت له: (لقد كنت أقرب إليك أكثر مما تتخيل).

قال: نعم، فماما كانت تقول لي إنك دائم السؤال عني عندما كنت أسألها عنك (قالها وهو يعطيني جزءًا من الجهاز الذي سألعب به معه).

نظرت أسفل باب الحجرة المغلق، ولمحت خيال (سالي). يبدو أنها تتصنت، فهي تعلم أني بالداخل الآن. وعلى الرغم من ذلك، فلم تدخل لتطردني، بل كانت تكذب على (سيف) من أجل أن تقدم لي أعذارًا هي تعلم أنها ليست حقيقية. كان من الممكن أن تملأ قلبه اللين سهل التأثر بالكره تجاهي، وكنت سأستحق ذلك عن جدارة، لكنها كانت تهيئ لي هذه اللحظة منذ عام؛ ليستقبلني ابني بهذا الاشتياق والحب والتسامح. لم نكن زوجين مناسبين لبعضنا، ولم تكن هي الزوجة المثالية بالنسبة لي، لكنها حظت على تقديري واحترامي لكونها الأم المثالية. وحرصها على أن تحفظ صورتي أمام ابننا يجعلني أفكر في إعطاء علاقتنا فرصة ثانية، لكن كل شيء بالتدريج. لا أريد أن يقذفني الارتياح والسعادة نحو قمة التوقعات ثم أسقط للقاع سريعًا. أريد أن أبدأ تحسين علاقتي مع (سيف) فربما أقِلَّه من المدرسة كل يوم وأنا عائدٌ من عملي. ستكون بداية جيدة.

سيف: بابا، أنت يسهل الانتصار عليك.

انتبهت له فوجدت أنني كنت غارقًا في أفكاري لدرجة أن تركته يهزمني في لعبة من لعب الجهاز. فأجبته قائلًا: هذه اللحظة أفضل من كل انتصارات حياتي. ليس لديك أيّة فكرة.

لم يفهمني بالطبع، لكنه كان شديد السعادة لدرجة أنه ألقى نفسه بحضني. كانت (سالي) لا تزال واقفة خلف الباب. إذا كان هناك شيءٌ لم يتغير فيها منذ عرفتها ومن المؤكد لن يتغير مع الزمن، فهو فضولها.

وأنا في طريق العودة لمنزلي، كنت أفكر في لحظاتي القليلة مع (سيف) اليوم وكيف بدت لي ككل حياتي وعن ملمس شعره وشكل عينيه وهما مغلقتان، فقد غلب عليه النعاس وهو يلعب فوضعته على فراشه، ثم نزلت عبر الشجرة متسللًا لأُفاجَأ بصوت من خلفي يقول: لست مضطرًا للتسلق من أجل الدخول ثانية.

التفتُّ فوجدت (سالي) واقفة عند باب المنزل، ثم أكملت كلامها قائلة: يمكنك قصد باب المنزل، لكن أخبرني قبلها كي يكون والدي حاضرًا.

فقلت لها: لقد كنت أُفكر في اصطحاب (سيف) عند العودة من المدرسة.

قالت: لا مشكلة، لكن لا تؤخره عن العودة للمنزل، وأرجو ألا تصحبه لأي مكان دون علمي.

قلت وبدا الخجل عليّ: حسنًا، لا تقلقي.

لم توشك أن تدخل وتغلق الباب حتى قلت لها: شكرًا يا (سالي).. شكرًا لكل شيء، أنتِ تستحقين الأفضل.

كانت تلك المشاهد تدور في عقلي مرارًا وتكراراً وأنا في طريقي لمنزلي حتي مررت بفيلا د.(أمجد) ونظرت إلى اللافتة كثيرًا، وبدأت أُحدِث بعضًا من

القفزات العفوية التي لا تلائم عمري ولا مكانتي كطفل يتبختر من السعادة، وكأنني أحتفل بنفسي لتحقيقي الهدف المؤجل والأهم في حياتي.

(تبدو سعيدًا اليوم. أين ذهبت عندما رحلت عن الحلقة؟)

تبعثرت حركاتي الطفولية وارتديت ثوب الوقار ثم التفتُّ لمواجهة قائل هذه العبارة. بالطبع عرفته من صوته. إنه (أمجد).

*لقد ذهبت لتطبيق هدف الحلقة يا (أمجد).

أمجد: هل عُدت إلى زوجتك؟ (قالها بحماسة)

*اهدأ قليلًا يا (أمجد)، إنها الخطوة الأولى، وعلى الأقل عدت لابني.

أمجد: تمام، على الأقل تعلم أنها خطوة أولى، يسَّر الله لك الطريق كاملًا. (قالها وهو يربت علي كتفي).

لحظات صمت مع ابتسامات، ثم قطعت الصمت قائلًا: لقد اشتقت إليك يا صديقي.

بدت السعادة على وجهه وتعانقنا، ثم دعاني لاحتساء كوب من القهوة في حديقة الفيلا. كنت أُفكر في الرفض بطريقة مهذبة، حيث نظرت إلى الساعة وتوقعت أن أفزع لتأخر الوقت ثم وجدتني أوافق وأدخل معه. ربما ما أفزعني أكثر هو فكرة أن يمر الوقت دون أن أُحدث تغييرًا في حياتي. ربما أيضًا ستكون ليلة طويلة، لكنني راضٍ وسعيد.

على حافة (الفجوة)

أيمكنني أن أصور حياتي في مشهد واحد؟! حسنًا. إنها طريقٌ يبدو أملس ممهدًا أمامي، ثم يبدأ التعرج وتنبت فيه الأشواك، لم يعد ناعمًا حريريًّا يشهد أولى خطواتي، تزداد العقبات به، يصعب السير فيه، تتزلزل منطقة استقراري، ومع غياب الشمس لم أعد أرى ظلي بل أصبحت ظِلًّا، تجتاحني الحوائل على الرغم من مواصلة السير؛ سعيًا نحو الشروق، وفي منتصف الطريق أتوقف للتساؤل: لِمَ أُحاول؟ لِمَ المقاومة؟ ثم يأتي صوت ضعيف منتحب من المجهول ليخبرني (لا جدوى من مواصلة السير، لِمَ لا تقصد الحافة وتحرر نفسك؟) أغمض عيني ثم أفتحها، أنا حقًّا على الحافة، ربما دفعني أحدهم إلى هناك، وربما كانت شياطين روحي حاكمة. من الممكن أن يُربكني المنطق المحب للحياة فأعود إلى طريقي غير نادم على اختيار صعابه بدلًا من الاستسلام والقفز نحو الهلاك، لكن إذا خسر ذاك المنطق وانسحب الإيمان، فسوف أسقط وأكون وحدي الفاعل.

**صوت طرق بباب غرفة..

(ليو)، استيقظ، أريدك أن ترافقني في جولتي اليوم.. ليووو.

إنه صوت أمي يخترق نومي فيسرقني من حلمي. إنها (ماريا) والمعروفة في ثنايا عقلي ب(تعيسة الحظ) لم توشك المسكينة أن تجمع شتات قلبها بعد وفاة

والديها حتى انجرفت في إجراءات الطلاق من والدي، ثم اصطدم بها تيار آخر من عاصفة مرضية كلفتها مهنتها، وعلى الرغم من كل هذا، فهي تتظاهر أنَّ شيئًا لم يحدث، لقد عثرت على وظيفة مؤخرًا، لكنها ستختلس منها لحظات عمرها مقابل مُرتَّب أقل، وأيضًا ستُكلفها عطلتها الأسبوعية. نعم، تلك العطلات التي تختفي فيها من المنزل منذ شروق الشمس حتى غروبها في رحلة مجهولة الوجهة، فقط تُعِد لي الطعام في الصباح الباكر وتوقظني ثم ترحل وتنقطع الاتصالات بيننا حتى تعود ليلًا. لكن الغريب هذه المرة أنها طلبت مني مرافقتها.

نهضت من فراشي، وبعد عدة دقائق كنا في السيارة وقد تناولنا الفطور وبدأنا رحلتنا. لست شخصًا يفضل استهلاك عقله في الواقع أو إطلاقه في الخيال. لم أعتد النظر في عين الشمس لأرسم مستقبلًا فريدًا، ولم أعتد أيضًا الهروب لأوكار الظلام كي أحيا ظلال أحلامي. لا أُشبه أي فتى بعمر التاسعة عشر، لا أُفضِّل التفكير، لحظات السكون بالنسبة لي فارغة مصحوبة بموسيقى تصويرية لصفحة بيضاء، تلك الموسيقى هي في الواقع صادرة من سماعات هاتفي شبه الملتصقة بأذنيّ، و لو أُغرقت في هدوء تام، فلن أشعر بخلل ولن تفتقد حواسي شيئًا.

توقفت السيارة. طلبت مني أمي اصطحابها لكني رفضت متحجِّجًا برغبتي الملحة في النوم. ففي قائمة رغباتي، يشغل النوم أول سطر ولا أعلم شيئًا عن باقي الأسطُر.

وضاعت نفسي في مرحلة أخرى من السكون، ولا أسعى للعثور عليها. إنه الهدوء المفعم بارتطام مياه البحر بالصخور والنسمات الزاحفة على بشرتي وعينيّ الناعستين، يبدو أننا على هضبة ما أو قرب شاطئ ما أو أنه فقط حلم وارتطم بواقعي. إنه السكون الممتزج بهمسات الطبيعة ثم السكون التام ثم اللاشيء.

أستيقظ وشعاع الضوء الخافت سابح بين جفوني، والسماء على وشك ارتداء الثوب الأسود. كم من دقائق قد مرت! أين أمي؟ لم توشك التساؤلات أن تُستضاف في عقلي في زيارة مفاجئة حتى لمحت هيئة امرأة من ظهرها ترتدي ثوب زفاف وتتطاير أطراف ثوبها مع شعرها الطويل الأسود المنساب، كانت على بُعد عدة خطوات مني، لم أوشك أن أخرج من السيارة لأسألها عن أمي حتى اختفت. لم تُحلِّق ولم تتبخر، بل انشقت الأرض وابتلعتها دون أن تصرخ أو تطلب النجدة.

في خطوات سريعة، وصلت إلى موقع تلك الفتاة، وهناك علمت أن الأرض لم تنشق وتبتلعها بل وقعت من الحافة. سكتّ برهة أحاول الاستعانة بمخزون عقلي من المعلومات. نعم، أعرف هذا المكان لكن ماذا أتى بنا إلى منحدر (الفجوة)؟!

لماذا تقصد أمي مكانًا لا يقصده سوى سائحين أو منتحرين؟ ولا أعتقد أنها شغوفة بالسياحة في مدينتنا (سيدني)!

تتوغل الحيرة في خلايا مخ أصابها الجمود منذ زمن (أمييييييي.. هل تسمعينني؟) لا إجابة. (ماريااا.. أين أنتِ؟) لا رد.

أتعلمون شعور المنعزل في بيته الذي يقرر فجأة الخروج بعد أن أقسم بحياته ألا يفعلها وقبل فتحه باب منزله، يتفاجئ بأن المفتاح قد ضاع، وكأن المفتاح قد شاركه القسم؟! هكذا حال عقلي دون رغبتي في التفكير، فأصبح خاليًا من المسببات، الاحتمالات أو حتى الاقتراحات.

عدت إلى السيارة وأنا أتساءل، فهو الشيء الوحيد القادر على فعله الآن. لماذا قررت أمي الانتحار؟ ثانية واحدة، هل من الممكن أن تكون قد انتحرت؟ هل تفكر في مثل تلك الأشياء؟ ظننتها قوية بالرغم من كل شيء أو فقط اعتادت الشعور بالخذلان.

الشمس في طريقها للغروب، وأنا في طريقي إلى عقلي فهل سأنال شرف الوصول؟

صوت ارتطام مياه البحر بالصخور يمتزج بتساؤلاتي.

تذكرت شيئًا، أحيانًا كنت أمر بغرفة أمي فأجدها مستلقاة على سريرها محملقة في السقف في سلام. هل كانت وقتها في حرب نفسية غير معلنة؟ هل

كانت تفكر في الاستسلام والتخلص من حياتها البائسة؟ ألم تفكر فيّ؟ أكنتُ بلا أهمية بالنسبة لها؟ لابد أنني كنت بلا جدوي.

تذكرت شيئًا آخر، لقد رسمت أمي بالألوان على مرايا غرفتها. هل لم تعد تريد النظر إلى صورتها في المرآة؟! فأنا لا أعتقد أنها من مُحبَّات الرسم، وهي لا تحترفه أيضًا.

طأطأت رأسي من الحزن والإحباط، لكنَّ شيئًا ما كان يخبرني أنها لم تنتحر، واستقبلت تيارًا جديدًا من التساؤلات عكس اتجاه سابقه، إذا كانت نواياها القدوم إلى هنا للانتحار، فلماذا دعتني لمرافقتها هذه المرة؟ أسندت ظهري وصوت بعقلي يردد (ما زالت حية).

مرت ساعات كمرور الأشواك بجسدي، مرور مصحوب بالألم والتأنيب والحيرة، أُغمض عيني كيّ أنظر داخلي عن كثب، لكن كل ما أجده هو الفراغ. الشمس غابت وأخذت معها أجزاءً مني لم أكن أعلم بوجودها كالأمل. لقد غابت بعد أن أشعلت داخلي نيران الاشتياق لأمي. حسنًا، لقد كنت معتادًا غيابها معظم الوقت، لكن كانت هناك تلك الحبة المغروسة في قلبي التي تُروَى عند رؤيتها بعد ساعات طويلة وتُنبِت داخلي شعورًا بالأمان، لذلك أشعر بجفاف مخيف داخلي يزداد ويتفاقم مع مرور الوقت.

بعد ساعات، قررت ألا أقف عاجزًا هكذا لوقت أطول، بل سأتجوّل بالسيارة باحثًا عنها. لكن ما أخشاه أن تعود من اتجاه آخر فلا تجدني ولا تجد

السيارة. وفي خضم الحوار مع نفسي، سمعت صوت خطوات أقدام ثم ارتطام خفيف بسيارتي وكأنَّ شخصًا أو شيئًا دُفِعَ نحوها مصحوبًا بصوت ضحكات امرأة، ثم بعض الهمسات حتى بدأ الكلام يتضح.

صوت رجل: لماذا تضحكين هكذا؟ ركِّزي لم نأت من أجل الضحك.

صوت امرأة: ألا يمكنني أن أودع حياتي البائسة بضحكة الانتصار؟!

خرجت من السيارة، فوجدت سيدة ترتدي فستان سهرة، تترنح في خطواتها نحو الحافة ومعها شاب يافع يعرج نحو نهايته.

(توقَّفا) هذا ما صحت به وأنا أركض نحوهما محاولًا منعهما مما يوشكان أن يفعلاه.

ردت السيدة في غضب:ما شأنك بما نفعله؟ لسنا في منزلك؟

أما الشاب، فأراد ردعي بطريقة أخرى، فأخرج من جيبه أداة حادة، وتقدم نحوي محاولًا الإسراع قائلًا: لن أندم على ارتكاب حماقة أخرى في حياتي اللعينة.

بعد أن كنت أركض نحوهما، صرت أركض مبتعدًا عنهما. لكنه كان مُصِرًّا على ملاحقتي حتى وصلت إلى سيارتي وكان في ذيلي، وحدث الاشتباك. إنه الصراع الذي يحدث بين شخصين أحدهما متمسك بنجاته والآخر متمسك بهلاكه. وَجَّه نحوي عددًا من الطعنات كنت أتفاداها، فامتلأت سيارتي خدوشًا. لحسن حظها أنها لا تنزف ولا تموت. وبين اشتباك وآخر، وَجَّه طعنة إليّ فهربت بعيدًا وتلقّاها إطار سيارتي، فانغرست فيه الأداة الحادة لثوانٍ كانت

كافية لأن أدفع ذلك الشاب بقوة، فسقط على الأرض وظل مستلقيًا لا لشدة الارتطام بل لشدة الإحباط. أما عن السيدة، فكانت تترنح في صمت، فوجئت باستمرار وجودها معنا، فقد حسبتها استغلت التشتت الحادث من الشجار لتنفِّذ ما جاءت لأجله، لكن على ما يبدو أن السعي للهلاك لا يكون حاسمًا بالأغلب كالسعي للنجاة.

بعد ثوانٍ قطعت الصمت مقتربة من باب السيارة وهي تقول: افتح هذا الباب، سأجرب بعض الحبوب لاحقًا. لا أريد أن أموت مرتطمة بشيء يشوه جمالي، سأموت بسلام جرَّاء تناول أية جرعة زائدة.

نهض الشاب من موضع استلقائه قائلًا: ليس هذا ما اتفقنا عليه.

السيدة: لا شرف في وعود الشياطين.

الرجل: إنكِ لجبانة حمقاء.

السيدة: لست جبانة، ولقد عزمت على ترك حياتي الفقيرة من الأهل والأصدقاء، وأن ألقِي وراء ظهري الشهرة حيث لم تجلب لي سوى الهلاك.

الرجل: حقًّا! أتعتقدين أن وجود أهل أو أصدقاء كان سينقذك من سخرية هذا القدر؟ فأنتِ لم تجربي قبح الحياة، وتمزَّق قلبك بسكين بارد عند رؤية الشفقة والحزن في عيون من يهتمون لأمرك. عندما ترين مستقبلك يتبخر بسبب مرض سخيف، يحكم عليكِ أن تكملي حياتك بطرف صناعي.

ودارت مشادة كلامية بينهما قطعتها قائلًا: لقد ذهبت، لا أعلم إلى أين أم لماذا؟ لقد كنت أشعر أنها بحاجة إلى المساعدة، لكن لم أمد لها يد العون أو حتى المشاركة.

وجهت نظري إليهما ثم أكملت: لم تحظ بالأهل ففقدت والديها بحادث سير وانفصلت عن زوجها، لم تحظ بكامل الصحة فقد أصيبت مؤخرًا بالبهاق الطرفي الذي منعها من العمل كعارضة محلية لصالح إحدي شركات التجميل. لقد كانت تسبح في بحر لا منارة له ولا طوق نجاة به، فغاب الهدف بحياتها وغابت معه الوسيلة.

ثم اختلط كلامي بالدموع وأنا متقدم نحو الحافة: أنا لا أريد أن ترحل وتتركني.

السيدة: عمن تتحدث؟

نظرت إليها بِأَسَى قائلًا: إنها أمي.

من الغريب الحصول على شفقة شخص مقبل على الانتحار متيقن أن لا مكان له في هذه الحياة، ولكن هذا ما يحدث عندما يكون صندوق توقعاتي فارغًا.

قال الرجل في هدوء وهو يربت على كتفي: يا للقبح! لماذا يموت البشر الجيدون ويعيش السيئون فى سعادة؟!

نظرت إليه السيدة في غضب، ثم قالت لي: هي بخير بالتأكيد لا تقلق، ويمكننا أن نؤجل خططنا حتى تعود والدتك.

جلست السيدة القرفصاء قرب الحافة، ثم أكملت: لا خسارة في الانتظار قليلًا، فربما يأتينا الموت قبل أن نأتيه.

جلست جوارها ثم استلقى الرجل جانبي، وكأن الوقوف على أرض الواقع أنهكه، سرحت في الأفق الممتد في السماء وأنا أنتظر الضوء. أريد أن أنظر إلى عين الشمس بعيني واعٍ مدرك قيمة الحياة المستمدة من قيمة أمي في حياتي وقيمتي في حياتها، ثم أغمضت جفوني واستلقيت وأنا أفكر في (ماريا تعيسة الحظ).

في الدقائق الأولى، كنت أستمع إلى حوار السيدة عن حبها للسفر، وأن هناك دُوَلًا لم تزرها؛ بسبب انشغالها، وعن حبيبها الذي تركته من أجل الشهرة، وإلى حديث الشاب عن حب عائلته له واهتمامهم به وفريق السلة لذوي الاحتياجات الخاصة الذي رفض الانضمام إليه، وأنه ربما تسرَّع في اتخاذ بعض القرارات أو فقط دفعه لذلك خليط من الأنانية والسخط، ثم بدأ الكلام في التبعثر وضلَّت جزيئات الهواء الحاملة للصوت طريقها لسمعي، وتوجهت حواسي داخلي. رأيت أمي ترتدي ثوبًا أبيض في ساحة كبيرة وتحمل عصفورًا أبيض جريحًا محاولةً تضميد جراحه، تنظر إليَّ ثم تبتسم فيبدأ العصفور الطيران مُجددًا.

أفتح عيني، الشمس تخترقني وتقتحم أجزائي، أرى وجه أمي حاجبًا جزءًا من أشعة الشمس، حواسي مشتتة أمازلت أحلم أم أنه الواقع؟ تبدأ الصورة تتضح، إنها أمي، أما زلت أحلم؟ أحاول النهوض والتركيز، ثم أصيح بحرارة معانقًا إياها: (ماريااااا) أنظر إليها مشدوهًا متعجبًا من الخدوش في وجهها، ثم أعانقها ثانية ضاحكًا باكيًا، أشعر وكأنني كنت ميتًا ثم حييت، لحظات عميقة تُشكل غوصي في حضنها وسماعي لدقات قلبها، ثم ألمح السيدة والشاب يتابعان هذا المشهد بجوار السيارة ويبدو عليهما بعض التأثر. وهناك شاب آخر طويل القامة وعريض المنكبين تعبيرات وجهه مضطربة وذراعه ملتف بالجبيرة يقف معهما، من هذا الشخص؟!

ثم اخترق تفكيري صوت ذلك الشاب الجديد، وكأنه قرأ تساؤلات عقلي: والدتك أنقذتني.

فقلت بصوت خافت: ممن؟

قال: من نفسي، لم أتوقع أنها ستجعلني أتراجع عن قراري، فهي تأتي هنا لتنقذنا من أنفسنا ومن عقولنا حين يصيبها سرطان الإحباط والغضب ومن قلوبنا حين تغرق في بحر السواد والاستسلام وأحادية النظرة. إنها النسخة الجديدة من السيد المعروف ب(ملاك الفجوة).

اعتدلت في وقفتي قائلًا: لكن ما سبب تلك الخدوش بوجهك يا (ماريا)؟

أكمل قائلًا: لم توشك أن تقنعني بالعدول عن فكرتي بعد أن حكت لي قصتها مع صعاب الحياة، وهممت المغادرة حتى سمعت صوت صياح. حيث كانت إحداهن عازمة الأمر على الانتحار ولم تتقبل محاولات ردع والدتك لها، وحدث اشتباك بينهما أدى إلى ارتطام رأس والدتك بالصخور المحيطة.

قاطعته السيدة ضاحكة: نعم، احكِ له جزئي المفضل.

قال مبتسمًا: بينما أحاول إنقاذ السيدة (ماريا)، انزلقت وكُسِر ذراعي واضطررنا للذهاب إلى المشفى.

ابتسمت أمي ولكنها كانت منهكة، عيناها مليئتان بالكلمات والحنان. لم تُرِد أن تشيح ببصرها عني، ثم قالت: ما رأيكم في تناول الفطور في (ذا لودج)؟ ليس بعيدًا عن هنا.

نظرت السيدة إلى الرجل ذي الطرف الصناعي، وكأنها تقول (لا بأس من فرصة ثانية لأنفسنا).

صاح الشاب العائد من الموت: نعم، أُفضل تناول وجبة بائسة عن الانتحار.

ربما يبدأ العدول عن فكرة الانتحار بالخوف أو بالحنين لملذات الحياة، فربما اختارت أمي توجيه تفكيرهم نحو إحدى تلك الملذات ألا وهو الطعام. قمت بتبديل إطار السيارة، وركبنا جميعًا وفي أثناء قيادتي، بدأت أمي التحدث:

(يأتون إلى الفجوة وقد ملأت الفجوات أرواحهم، يرون فيها مدخلًا إلى نعيمٍ ما بعالَمٍ ما، ولا يفكرون في أن الجانب الآخر مازال مجهولًا. اتساع الفجوات في أرواحهم قد بلغ المنتهى حتى وإن صغرت الأسباب. ربما جُناة وربما ضحايا لكنَّ طرفيّ العلاقة الشخص نفسه. أستمدُّ من عزم بعض الناس على الهلاك طاقة لعزمي على النجاة وأحاول أن أمدهم بها، فتارة أنجح في إنقاذهم وتارات لا)

ثم خصصَت الكلام لي وهي تربت على كتفي:

(عزيزي، الحياة لم تكن سهلة ولن تكون، ولكن ليس معنى أن أحدهم أرسلك إلى حافة جبل، أن تُلقُي نفسك من فوقه. في الحياة، هناك من ينشغل بتجميع أطرافه المبعثرة، وهناك من يبحث عن شخص ليلقي عليه لَوْمَ بَعْثَرَتِها غير واعٍ أنه سواء إنْ أصاب في لومه أو أخطأ، فهو مازال مكسورًا، والكسر الدائم يُولد يأسًا يقود إما إلى الإحباط المرضي وإما إلى الغضب والسخط الشديد، وكلا الطريقين يقودان إلى الحافَّة، ثم لا شيء سوى السقوط).

كابينة (6)

الليل قاسٍ. قسوة تحمل في طياتها بكاء المقهورين وأمنيات القائمين وحيرة الساهرين. قسوة تحمل بردًا في النفوس تارة وفي الأجساد تارة أخرى.

كانت تركض تلوذ بالفرار مما رأته، تلعن حظها السيئ في كل ما تبقى لها، تلهث وقطرات المطر تهطل عليها كالرصاص، الكلاب النابحة والأرض المبتلة والحشرات الزاحفة تجتمع في المشهد وكأنها حرب معلنة عليها من السماء والأرض وجميع الكائنات.

لم تكن تعلم وجهتها ،لم تكن تفكر فيما ستواجهه في المستقبل، كانت عيناها مرتبكتين ككافة حواسها، وظلمات عقلها كانت لها السطوة الكبرى في استعادة المشاهد الأليمة التي تركتها في منزلها راكضة في الشوارع والطرقات حافية القدمين.

أخفت علبة سجائر حديثة العهد في حقيبتها وتوارت داخل إحدى كابينات الهاتف في جانب الطريق، تبكي بشدة وقد كادت أن تغرق ملامحها في الدموع المنهمرة، تقدمت أصابعها نحو أزرار الهاتف في حركة عشوائية متوترة لم تكن تعلم بمن تتصل. فلم يكن لها من تشكو له من المعارف أو الأهل أو الأصدقاء، أكثر من رقم طلبته فتارة لا يصدر رنين الإرسال وتارة لا يرد عليها أحد وتارة ثالثة يرد شخص ثم ينهي المكالمة غضبًا، ثم بدأت إشارات الاتصال

الاستجابة بعد عدة محاولات لكن من سيجيب؟ وهل سيستمع إليها؟ وكيف سيستقبل هذا المستوى الفريد من اليأس الذي تواجهه تلك المرأة؟

**الليل مؤنس يحمل في سمائه النجوم المستنيرة والموسيقى المنبعثة من التجمعات الدافئة والضحكات المدوية. حلم يبعث في القلوب دقات راقصة وفي العقول سماوات صافية.

كان يحتفل بنشر أوراق بحثه العلمي، عمله يزدهر، أسرته تصفق له وزوجته تتأمل بحب وحنان نور ملامحه وظلام نفسه، كان احتفالًا لحضوره وليس بحضوره، فقد كانت نفسه مائلة للظلام يحكمها أن الواقع فانٍ وأنه كلما زاد امتلاكه للأشياء، زاد فقده لها. يحب حياته لكنه يخشى قدر حبه كثيرًا، يحمل حقيقة الموت وسنن الحياة الفانية فوق عاتقه كل وقته عدا وقت العمل، فهو الوقت الذهبي حيث يترك كافة أفكاره المرتبكة ويركز على اكتشاف العناصر الجديدة وتفاعلاتها، علاقته بعمله لم يصبها فتور قط.

ابتعد عن الضجيج وجلس في حجرته بجانب الهاتف، أشعل سيجارته ونفث الدخان في فضائه المظلم، ومستقبله غير المضمونة نهايته اقترانًا بقانون فناء الأشياء، بدأ الهاتف يرنّ، لكن من المتصل؟

*ألو..

**صوت مرتجف: ألديك بعض الوقت؟

*من أنتِ؟ من تريدين؟

**لا أريد شخصًا مُحددًا، أريد مَن يسمعني، ليس لديّ أحد الآن.

*يقول وهو على وشك غلق سماعة الهاتف: ليس لدي وقت للمزاح.

تباغته بيأس قائلة: يمكنك أن تنهي المكالمة، لا يهمني، سأطلب رقمًا آخر بطريقة عشوائية كهذه حتى أجد من يسمعني ويلهيني عن بؤسي.

راق لظلامه الداخلي حديثها فهو يلائمه أكثر من الاحتفال المستمر خارج حجرته، وشجعه الفضول المتسم به جراء كونه عالمًا فيزيائيًّا يسعى لاكتشاف العناصر المجهولة، قال لها: يمكنك التحدث، أسمعك بوضوح.

بعد ثوانٍ من الصمت يقول: ألن تتحدثِي؟

**إنه أسوأ يوم أمر به في حياتى، مررت بأيام سيئة كثيرة لكنه الأسوء.

*لماذا؟ ماذا حدث؟

توترت وتحركت عيناها للأعلى جهة اليسار وأخذت تحك أنفها، ثم أبعدت خصلة من شعرها وراء أذنها وهي تقول بعد تمتمة: تم تشخيصي بمرض خطير.

*مرض ماذا؟

**أُفضل عدم الإفصاح.

*أيهدد حياتك؟

**ربما.

*حسنًا، أنا لا أجيد قيادة الحوار، لكنني أستمع جيدًا،أتنوين التحدث حقًّا أم ننهي المكالمة؟

اضطرب صوتها وقالت: اعذرني، أنا محتارة، لا أجد لحياتي هدفًا أو وسيلة، لم أتخيل هذا المسار أو المصير لواقعي، أريد الهروب من كل شيء حتى من نفسي.

*أعتقد أن من يتم تشخيصهم بأمراض خطيرة لا يفكرون بهذه الطريقة، ولا يكون عدم وجود الأهداف ما يشغلهم.

كان يعلم أنها تكذب على الرغم من عدم رؤيته لغة جسدها التي تعلن عدم صدقها بكل وضوح.

كانت تفكر في غلق الهاتف، فكبرياؤها يحول دون تقبلها لواقع أنها كذبت وتم كشف كذبتها ببساطة، فهي ليست كاذبة ماهرة، ولكنها تراجعت عن ذلك، فكبرياؤها ليس طرفًا في هذه المحادثة، هو لا يعرف من هي وكذلك هي لا تعرفه، والسيد الأجدر بتسخير كل العناصر لخدمته هو التحدث.

الحديث الحر غير المقيد بمصلحة أحدهم أو تجميل صورته.

لكن كيف تضع كرامتها جانب شخصيتها المجهولة وتخبره الحقيقة؟!

إن كلًّا منهما مادة مجهولة في حياة الآخر كعناصر فيزيائية لم يتم اكتشافها بعد، لكن هذا لا ينفي وجودها بل وتفاعلها، صمتت قليلًا، ثم بدأت التحدث.

**أتعلم حياتي كانت...

توقفت عن الحديث وكأنها كانت تقطع طريقًا طويلًا من أجل وجهة ما ،وعندما اقتربت منها تقهقرت وغيرت مسارها، جاء صوته متسائلًا: أتريدين حقًّا التحدث عن حياتك أم بعيدًا عنها؟

كانت تعلم أنها أرادت عدم التحدث عن حياتها والتحدث عن أي شيء آخر، ربما عن الطبيعة، عن المعجزات، عن أخبار الناس، عن عادات الشعوب، عن غرائب الحيوانات، الطيور ،عن الصحاري، أي شيء آخر بعيدًا عن حياتها، أي شيء يُنسيها هويتها كشخص يريد الهروب من ذاته سخطًا على حاله، لكنها صمتت وقالت عكس ما يجول بخاطرها: أريد التحدث عن حياتي ومأساتي كي أتخذ قرارًا.

ليس كل ما نريده هو بالفعل ما نحتاجه، فما كانت بحاجة إليه حقاً هو أن تواجه مأساتها.

**أتعلم ما أشعر به؟ أنا غاضبة محبطة متزعزعة الثقة بنفسي وبالعالم، أنا حزينة ولكن ليس الحزن الهادئ ما أقصده، بل الحزن الثائر الذي يحثك على التدمير والإيذاء والانتقام لحياتك ووقتك وكبريائك، شعور بالفشل على الرغم من المحاولات الجاهدة للنجاح، الخذلان يلتهمني، لم أكن هكذا قبل الليلة. قبل قليل، كنت مستقرة أسعد وأحزن بنسبة، أضحك وأبكى باتزان، كل المشاعر تخطت الحدود.

تنهد قائلًا: خيانة، أليس كذلك؟

اتسعت حدقتا عينيها لسرعة وصواب تخمينه، وقالت بعد تلعثم: كان يتصرف بشكل طبيعي لم ألحظ أية غرابة، فكذّبت ما سمعته ووثقت به، لم أتوقع أنه حقًّا كما كان يحاول بعضٌ إخباري بأنه يخونني منذ فترة بل ويُحضرها لمنزلنا في غيابي، كنت أظنهم حاقدين كاذبين.

*هل تهتمين لأمر زوجك؟

**أكيد كنت مهتمة.

*إذن لماذا تجنبتي الشك؟

طرق أحدهم الباب عليه واخترق سمعها صوت أنثوي يقول: ماذا تفعل عزيزي؟ أستتركنا طوال الليل نحتفل بك وبدونك؟

فرد على المتحدثة بصوت لطيف:نعم، سآتي بعد أن أنهي سيجارتي ومكالمة العمل هذه.

ردت عليه: حسنًا، لا تتأخر.

بينما كان يتحدث إلى زوجته، كانت بالكابينة تخوض صراعًا بين التمسك بنفسها والهروب منها، رأت صورة وجهها على زجاج الكابينة، أشاحت عينيها الدامعتين، فركت شعرها بعنف، أخرجت سيجارًا وأشعلته، ثم قالت بنبرة صوت ناعمة مصطنعة: لماذا كذبت على زوجتك؟ أتحسب التحدث معي خطيئة؟

*لم أكذب عليها، أنا فقط لم أشرح لها (وبدا عليه التعجب من تغيير صوتها)

**ولماذا لم تشرح لها؟

*لأنه لا يمكنني شرح ما لا أفهمه.

**يبدو أنني أشغلك عن حدث مهم بحياتك (قالتها وهي تقرب السيجارة من شفتيها)

*مم نعم، ولكن لا، لا أعلم، بعض الدقائق لن تضر وقتي.

في ذلك الوقت بدأت معزوفة من السعال مع إلقاء اللعنات على التدخين والدخان والمدخنين.

*لماذا تجربين التدخين الآن؟!

** ما المشكلة عزيزي؟ (قالتها على الرغم من التردد وعدم الارتياح في ثوب الشخصية المستعارة)

*لحظة واحدة. أهذه مزحة أم أنك تكذبين منذ بداية المكالمة؟!

صمتت قليلًا ثم انفجرت في البكاء: لا أعلم ماذا يجب أن أفعل، ربما وثقت به أكثر مما يستحق، لكن هل هذا ذنب؟ هل هذه جريمة تستحق العقاب؟ لقد أحضرها للمنزل وكان يعلم أني ساهرة بالعمل. لقد أدخلها منزلي وألبسها وشاحي، وشاركها فراشي. لم يعلم أنني كنت أرى وأتابع من

نافذة الحديقة، لقد تركت العمل مبكرًا كي أقضي وقتًا أطول معه. كم أنا بائسة؟!!

*اهدئي يا سيدة. من الجيد أنك كشفتي خيانته.

**لا أعلم إذا كان هذا جيدًا ! فهو لا يعرف أنني رأيتها، في الواقع، لقد ترددت كثيرًا بين أن أُمثل الجهل بالأمر وبين مواجهته، لكنني منهكة حقًّا، ليس لدي من أستشيره أو من يشاركني حزني وصدمتي، ثقل المشاعر زاد على صدري وتضاعف.

*أكنت تحبينه حقًّا؟

**أنا أكرهه بعمق، لا أتذكر أنني كرهت أحدًا بهذا العمق، عندما أحببته، خلق قلبي وعقلي عوالم سعيدة وإمبراطوريات آمنة، وعندما أحبَّني، كان ذلك بمثابة توثيق لكل شيء صنعته، لكن هذه الكارثة أطاحت بتلك العوالم، وأصبحت روحي محطمة، فتغير الشعور من الأقصى للأقصى المضاد.

سكتت قليلًا، ثم قالت: لن تشعر بي، لابد من وجود أحد محطم أو فاشل حتى يدرك ما أشعر به.

*في الواقع، أنا أشعر بك حقًّا، لست كما تتخيلين. فأنا لست الزوج المثالي، لقد مررت بعلاقة فاشلة وكنت أنا سبب الفشل.

**كيف ذلك؟ (قالتها وهي تمسح دموعها)

*لقد تركت فتاة منذ خمس سنوات تتساءل عن الذي فعلته لأبتعد عنها وأتزوج من غيرها. ظلت تلوم نفسها وربما ما زالت، لكن القصة من منظوري أنها فقط خسرتني وكسبت نفسها، وها أنا أتظاهر بنسياني لها.

**إذن كنت تحبها، فلماذا لم تتزوجها؟ لماذا تزوجت بأخرى؟

*لقد كانت فتاة مرحة تعشق الحياة والمغامرة، كانت واثقة من نفسها مؤمنة بأفكارها وكنت فقط أنا .لست متشائمًا، لكنني أحمل على عاتقي حقيقة الموت والفناء في كفة وحب العمل في الكفة الأخرى، لدي جانب مظلم، وكنت أعلم أن تلك الفتاة لن تستطيع استيعابه مع الوقت، لكن زوجتي لا تخشى خوض ظلام كهذا، فقد تعاملت معه وخاضته، علمت أنني لن أكون سببًا في خوفها أو خوضها تجربة زواج مريرة، هي تراني وترى ظلمتي وتسكن كهفي دون أن تخشى شيئًا، بل وتراني مصدرًا للضوء وسط ظلام روحي.

**كيف تراك مصدرًا للضوء وأنت متشائم؟!

*أولًا، لست متشائمًا، أنا واقعي، أما عن نظرتها لي، فقلبها هو الذي ينير أعينها عندما تسقط عليّ، فتظن أنني مُضِيء، لكنني لست كذلك، إنما هي مصدر الضوء.

ثم أكمل: إن البشر يحكمون بالنجاح والفشل من وجهة نظرهم وآرائهم وهو مقياس غير معتمد وغير موثق، قد يمر أحدهم بتجربة زواج فاشلة، لكنه

يعلم ما يتطلب الأمر لإقامة علاقة ناجحة أكثر من عديد من الأزواج المحافظين على علاقتهم لمدة طويلة.

**أكثر منك؟

*ربما، فعلى ما يبدو أن مفهومي للعلاقة المستقرة مبني على تقبل الآخر لظلامي الداخلي وطبيعة عملي.

**أتعلم كيف سأتصرف؟ سأتظاهر أن شيئًا لم يحدث، سأعيش ضريرة صماء خرساء أو سأقنع نفسي أن هذا لم يحدث سأكذب عينيّ. سأدفن روحي، وسأستبدل قلبي.

*تستطيعين مسامحته؟

**مسامحة!! لا بالطبع. كيف أغفر له ذلك؟ لن أستطيع، أنا فقط سأخدع نفسي وأتناسى، كمن يكذب الكذبة نفسها حتى يصدقها.

*لن تستطيعي فعل ذلك، فهذا ما يسمى الفشل.

**لن أستطيع المواجهة ولا المسامحة؟

*لماذا لا تتناقشين معه وتحاولين إصلاح خلافاتكما؟

**خلافات؟ أية خلافات تبرر الخيانة؟!

*ليست مبررًا، ولكن يجب أن تقيمي علاقتكما.

**كنت أتمنى أن يكون بيننا خلافات، كنت أتمنى أن يكون هناك سببٌ قويٌّ للخيانة؛ لتقليل وقع الصدمة على قلبي الهادئ، لكنه كان الملل فقط، ففي

الملل مداخل عدة للشيطان.

*الملل أصابه ولم يصبكِ؟

**أصابني بالتأكيد، ولكنني كنت أقاومه بالعمل، وباقتراح خطط جديدة نتشاركها في حياتنا، لكنه لم يكن مستمعًا جيدًا ولا متحمسًا لأي تغيير.

*لن تستطيعي مسامحته، فلِمَ لا تواجهينه وتنهي الزواج؟

**إنها الوحدة، هي ما أخشى.

*نعم، أتفهمك، فأنا أشعر بها طوال الوقت.

**لا أقصد نوع الوحدة الذي تشعر به على الرغم من وجود عديد من الناس حولك واهتمامهم لأمرك، بل أقصد ذاك النوع شديد التركيز من الوحدة الداخلية والخارجية.

سكت برهة، فلم يكن قادرًا على مجاراتها في ذلك.

*لا أعلم ما يجب قوله، لكنني مثلك أواجه الملل والفراغ بالعمل، لابد أنك ناجحة في عملك.

سكتت قليلًا والأفكار تدور بعقلها، ثم قطبت حاجبيها وقالت: هل يمكنك أن تخون زوجتك يومًا؟

*لا بالطبع.

تحولت نبرة صوته من الثقة إلى التردد، لاحظت هي ذلك، فكررت السؤال ثانية بنبرة حادة.

سكت قليلًا، لم يكن لديه أي شعور قوي ينفر من فكرة الخيانة أو حدود حاسمة لما قد يقوده إليه ظلامه.

أخذ يرتب بعض أفكاره موجهًا حديثه نحو قصتها، ثم قال بحرارة غير معتادة في كلماته: يمكنني معرفة أنكِ لست سببًا في فشل علاقتك مع زوجك؛ لأنني الفاشل هنا، الخيانة ليست حدثًا مفاجئًا، وليست سقطة بفعل القصور الذاتي، زوجك خطّط وفكر كثيرًا في كيفية تفادي وجودك، وفكر أيضًا في الوقت المناسب لفعلته، ولم تكن المرة الأولى. إن قلبه ميت تجاهك، يخونك ثم يستيقظ ليبتسم في وجهك ويتناول معك الفطور، وربما يودعك قبل العمل بحرارة.

**نعم بالفعل (قالتها وعيناها جافّتان قاسيتان)

*لا أستطيع أن أُملي عليكِ ما يجب فعله، لكن لا يمكن الهروب من نفسك أو من قدرك، لا يمكنك الهروب.

**أعتقد أنني لم أعد محتارة الآن.

*أين أنتِ؟

**أنا في كابينة ٦.

*أيمكنك ترك رقم هاتفك في أي ركن من الكابينة؟

كان يفكر في خلق رابط للتواصل معها ثانية، لكن مصيرها هو كل ما يشغلها.

لاحظ ذلك لتأخرها في الرد، فقال بإلحاح لا يتسم بهِ: ألديكِ ورقة وقلم؟!

**نعم ،لديّ.

أملاها رقمه بحماسة لم تشعر هي بها، ثم قال: يمكنك التحدث إليّ في أي وقت.

كتبت الرقم على جزء من ورقة ملقاة على الأرض، لكنها لم تحفظه عن ظهر قلب، ثم قالت:

**حسنًا، لقد ساعدتني كثيرًا اليوم، لا أعلم كيف كنت سأواجه هذه المأساة لولا حدثتك، ولكن أريد أن أخبرك شيئًا، إنها هناك بجانبك دائمًا، تعلم أنك لا تشعر بها لكنها لا تبتعد، ترى ظلمتك نورًا وجحيمك فردوسًا، فلا تخذلها، لا تجعلها تشعر كما أشعر الآن.

وخرجت من الكابينة، وكانت تمطر مطرًا غزيرًا، أذاب الأرقام بالورقة البالية، وأذاب الأفكار بعقلها. لم تكن تعلم بالتحديد شكل حياتها الجديد، لكنها كانت أكثر قوة، أشد صلابة، أكثر ثقة بنفسها، أشد إخلاصًا لروحها البريئة من خطايا العالم، عازمة على مواجهة قدرها بطريقة ما لم

تحددها بعد، لكنها لن تهرب.. لن تستسلم.. لن تعيش بروح زائفة وقلب مستعار.

الفهرس

سبكتروفوبيا..... 5

التلاشي 9

ثقة عمياء.....25

الزيارة 37

أَلَمٌ مزمن.....47

سأنتظر حتى الشروق 56

قمة اللاشيء.....69

جسر الذكريات.....78

مسألة وقت 87

على حافة (الفجوة) 101

كابينة (6) 113

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.